المعتقد الصحيح في توحيد الربوبية

فإن أهم ما ينبغي أن يتعلمَهُ المُسلم: هو الاعتقادُ الصحيح، الاعتقادُ الَّذِي جاء به محمَّدٌ ﷺ، اعتقادُ أهل السُّنةِ والجماعَةِ؛ الذي هُو الدِّين الحقُّ، وهو الذي يجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يعتقدَهُ؛ لأنهُ اعتقادُ رسولِ الله ﷺ، وصحابتِهِ الكِرامِ -رضي الله عنهم أجمعين-.

وهذا المعتَقدُ -مُعتقدُ أهلِ السنةِ والجمَاعةِ- الذي هو اعتقادُ رسولِ اللهِ ﷺ وصحابتِهِ الكرامِ رضي الله عنهم، مَن خالفَ في ذلكَ المعتقد فقَدْ عرَّض نفسَهُ لعقَابِ الله الشديدِ ومَقتِهِ وغَضبِهِ.

يقول النبي ﷺ عَن الفرق، والأحزاب، والجماعَات التِي ستكونُ في أمَّتِهِ، يقُول عن الفِرَقِ، وهي ثلاثٌ وسبعون فرقةً: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدةً، وهِي الجمَاعةُ**»(١).

وَهَذَا الحَدِيثُ حَدِيثٌ ثَابِتٌ أَخْرَجَهُ الإمام أحمدُ وأبو داودَ من حَديث مُعاويَةَ، وأخرجه أحمدُ وابنُ ماجَه وابنُ أبي عَاصم من حَديث أنسٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٩٨)، وابن ماجه (٣٩٩٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٤).

هذه الجماعة التي هِي فِي الجنةِ دُونَ بقيةِ الفِرقِ التي في النارِ، وَصَفهَا النبي المُختارُ ﷺ بوَصفٍ جامعٍ؛ فقال: «**مَن كانَ عَلَىٰ مِثلِ مَا أنَا عَليهِ اليَومَ وأصحَابِي**»[1]. أخرجَهُ الآجُرِّي في الشَّريعةِ عَن عبد الله بن عمرٍو، والطبَرانِي في الصَّغير والأوسَطِ من حَديثِ أنسِ بن مَالكٍ.

فضابطُ أهلِ السُّنةِ والجَماعَةِ: أنَّهم مُتمسِّكون بسُنةِ رسُولِ اللهِ ﷺ، وسُنةِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ المَهدِيينَ مِن بَعدِه، وأنَّهم عاضُّون عَلىٰ ذلك بالنَّواجذِ؛ بأصولِ الأضرَاسِ، مُتمسكونَ بذَلكَ، ومن أجلِ ذلك كانُوا فِرقة نَاجيةً.

فهذه الفرقة الناجية التي ذكرها النبي ﷺ الذين ينجون من النار يوم القيامة، سالمون من البدع في الدنيا، لا يواقعون البدع، ولا يقتربون من البدع، ولا تقع عليهم البدع، البدع الاعتقادية التي تصيب الناس في هذه الحياة، أهل السنة والجماعة مبرءون من ذلك بُرآءُ مِنهُ.

ولذلك كانت الفرقةَ المنصورة؛ لقول النبي ﷺ عنهم: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ**» يعني: غالبين «**حَتَّىٰ يَأتِيهِم أَمْرُ اللهِ وَهُم ظَاهِرُونَ**»[2] يعني: وهم غالبون. أخرجاه في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).

*** مَا هُو اعتِقَادُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ؟**

مُعتقدُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ هُو مُعتَقَدُ رَسُولِ الله ﷺ، ومُعتقد الصَّحَابَة الكِرام -رضوَان اللهِ عَليهم-، لا نجاةَ للعبد من النارِ إلا إذا أتىٰ بهذا المعتقَدِ كمَا كان عليه رسولُ اللهﷺ؛ لأن النبيَّﷺ أخبَر أن هذه الأمةَ ستفتَرِقُ إلىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقةً كلُّها في النار إلَّا واحدَةً.

فلما سُئل النبيﷺ عن هذه الفرقة الناجية دون هذه الفرق الكثيرة التي هِي مِن أهلِ النارِ، قالَ النبيﷺ في وَصف تلك الفرقة الناجيةِ التي هي علىٰ مُعتقدِهِ، ومُعتقدِ صحابتِهِ الكرام -صلىٰ الله عليه وسلم ورضي الله عنهم-، قالَ: «**مَن كانَ عَلىٰ مَا أنَا عَليهِ اليَومَ وأصحَابِي**»[1].

فالذِي يُريد النجاةَ، ويريدُ أن ينجوَ من النار، وأن يَسلَم منها عَليه أن يَلحظَ مُعتقد الرسول ﷺ بعين بَصيرتِهِ، وبعين الرعايَةِ والاهتمَامِ، وأن يعلَمَ أن ذلك هو الذي مِن أجلهِ خَلقه الله، فيُحصِّل ذلك الأمرَ ويَبذل فيه الجَهدَ والوُسعَ، ولا يتكاسَل في تَحصيلِ مُعتقد أهلِ السنَّةِ، لأنهم هم الفرقة الناجيةُ الذين لا تمسُّهمُ النارُ؛ لأنهم علىٰ معتقد النبي المُختارِ وصحابته الأخيار.

---

(١) تقدم تخريجه.

وهؤلاء قال فيهم النبيُّ ﷺ إنهم ظاهرونَ لا يُغلَبون، والظهور هُنا بمعنىٰ النصر؛ ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤]. يعني: فأصبَحُوا مُنتصرِين.

وقال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣].

فهم غَالبون بالسيفِ والسِّنان، وغالبون بالحُجة والبُرهان، وهؤلاء فرقةٌ واحدة لا تتعددُ؛ ولذلك سُمُّوا بالجماعة، فماذا بَعد الحقِّ إلا الضلالُ؟!

ليس لهم اسمٌ يُعرَفون به سِوىٰ الإسلام والسُّنة، وما دلَّ عليهما من الألفَاظ.

قالَ الإمامُ مالكٌ -رحمة الله عليه-: أهلُ السُّنة ليسَ لهم لقبٌ يُعرفونَ به، لا جهميٌّ، ولا قَدَريٌّ، ولا رافضِيٌّ، ولا شِيعيٌّ، ولكن: أهلُ السُّنةِ.

وسُئلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَن السُّنَّةِ، فقَالَ: «ما لَا اسمَ لهُ سِوىٰ السنَّةِ».

السُّنة: هي ما جاء به رسولُ الله ﷺ.

وهو يعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن أهلَ السنة ليسَ لهم اسمٌ يُنسبون إليه سِواها، لا

يُنسبونَ إلا إلىٰ السُّنة، فهم أتباع النبيﷺ حقًّا وصدقًا.

عقيدة أهل السنة التي هي عقيدة الفرقة الناجية، التي هي عقيدة محمدٍ ﷺ ومعتقده، وهي عقيدة أصحابه الأخيار الأطهار -رضوان الله عليهم-.

هذه العقيدة ينبغي أن يلتفت الإنسان إليها التفاتًا صحيحًا، وأن يتعلمها، وأن يذاكرها، وأن يطالب نفسه بأن يأتي بها بعد معرفتها؛ لأنها مناطُ نجاحه، ومناطُ فلاحه في الدنيا وفي الآخرة.

وإذا لم يتعلم المعتقدَ الصحيح الذي يُنجي من النار، ومن المؤاخذة في الآخرة، وإذا لم يعتقد اعتقاد الرسول ﷺ فلا شك أنه علىٰ باطلٍ، وعلىٰ ضلال.

والنبي ﷺ أرسله الله رب العالمين من أجل أن يُوحِّد الناسُ في الأرض ربَّهم -جل وعلا-، فكان لابد من معرفة هذا الأمر الكبير الذي لأجله خَلق اللهُ رب العالمين الخلقَ.

والعلماء -رحمة الله عليهم- كتبوا في هذا الأمر وحرروه، وصنفوا فيه وألَّفوا؛ من أجل أن يدلُّوا الناسَ علىٰ هذا الأمر الكَبير الذي هو رأسُ

الأمر؛ لأنه هو الذي لأجلِهِ خَلَق الله ربُّ العالمين الخَلقَ، من أجل أن يُوحِّدوا ربَّهم -جل وعلا-، وأن يعبدوه، وألَّا يَصرفُوا شيئًا من العِبادة لغَير وَجهه الكَريم، فمِما كَتب العُلماءُ في ذلك أنَّهم بيَّنُوا المُعتقدَ الصحيحَ في تَوحيد الرُّبوبيَّة.

مَا هو توحيدُ الربوبية؟

هو تَوحيدُ العبدِ ربَّه بفعل الربِّ -جل وعلا-، أن تُوحِّدَ الله -تبارَك وتعالىٰ- بفعله -جل وعلا-، بإفرَاد الله -تبارك وتعالىٰ- في أفعَاله.

ومَعناه: أن الله -تبارك وتعالىٰ- هو المُنفرد في الخَلق، وهو المنفردُ في الأمر، وهو الذي له الملك لا شريك له؛ فله الملك وله التدبير، وهو المُوجِد لهذِه المخلوقات جميعها وهذه الكائنات كلها من العدم، بدون شريكٍ ولا مُعين.

فلابد أن يستقرَّ هذا في النفسِ اعتقادًا، أن يعتقد الإنسانُ أن اللهَ -تبارك وتعالىٰ- هو المنفردُ بالخلقِ، وهوَ المنفردُ بالمُلك، وهو المنفرد بالأمرِ والتَّدبير.

فهو سبحانه الذِي أوجدَ هذا الوجودَ كلَّهُ، علىٰ تنوعِ الموجوداتِ فيهِ، وعلىٰ اختلافِ الكائنات فيه، أوجدَها جميعها من العَدَم، من لا شيء.

فأوجدَ الله -تبارك وتعالىٰ- السمواتِ والأرضَ وما بينهما، وخلق الله رب العالمين الخَلق، لا مِن مادَّة أولية خام، وإنما خَلَق اللهُ رب العالمين من العَدم، وأوجدَ اللهُ ربُّ العالمين من العَدم، وجعل اللهُ رب العالمين هذا الخَلق كله عَلىٰ إحكامِ وإبداع النظام فيه مِن لا شَيء، من العَدم.

فتوحيدُ العبدِ ربَّه بفعلِ الربِّ نفسِهِ -جل وعلا-، فيعتقدُ أهل السنة والجماعة: أن الله تعالىٰ وحدَه متفردٌ بالخَلق والملك والتدبير.

قالَ ربُّنا -جَلَّت قُدرتُهُ-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال سُبحانه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٤٩].

وقال تَعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد:٢].

هذا التوحيدُ هو تَوحيد الربُوبيَّة، وهو مستقرٌّ في النفوس البشريةِ، لا

يُنازعُ فيه أحدٌ من الناسِ، مُسلمًا كان أو كافرًا، كما قالَ الله -تبارك وتعالىٰ- عن الكفارِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥].

فهؤلاء الكفَّارُ يُقرون أن الله هو خالقُ السموات والأرضِ.

وقال تعالىٰ عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

قال مُجاهدٌ: «إيمانُهم قولُهم: الله خالقُنا ويرزقنا ويُميتنا».

فهذا إيمَانٌ مع شركِ عبادتِهم غيرَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

فأثبَت لهُم إيمَانًا علىٰ نَحوٍ مَا، ما هو؟ يقولون: الله خالقُنا، وهو يرزقُنا، ويُميتنا، فهذا إيمان، مع شركٍ في عبادتهم لغَير اللهِ ربِّ العالمين.

فالمُشركون لم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم تشارك الله -تبارك وتعالىٰ- في الخلق، بل كانوا يعتقدون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم يُتوسَّل بها إلىٰ الله، ولكنها ليست بخالقةٍ، ليس لها في الخَلق شيءٌ.

كانوا يعتقدونَ أن الأصنام التي يعبدون، وأن الآلهة التي يُقدِّسون ليس لها في الخلق شيء، ولكنها إنما هي وَسيلة إلىٰ الله رب العالمين، تُتخذ شُفعاءَ عندَ الله.

كما قالَ -جلَّت قُدرتُه-: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ يعني: أنهم لا يعبدونَ تلك الآلهَةَ ومَا يُقدِّسون تِلكَ الأصنَامَ ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي: إلا ليقربونَا إلىٰ اللهِ تقريبًا، لنتخذَ تلكَ الآلهةَ وسائطَ عند الله -تبارَك وتعالَىٰ- تُقربنا إلَيه تَقريبًا.

وقَال -جلَّت قُدرتُهُ-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر:٤٠].

وقالَ -جَلَّت قُدرتُه- عَن مُشركي قُريش: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٥-٣٦]. وقد نزَّهه الله عَن ذلك تَنزيهًا.

وقالَ الله -تبارَك وتعالىٰ- عَنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

فهم كانوا يعلمون، ويُقرون، ولا يُنكرون أن الله -تبارك وتعالىٰ- هو خالقُ السموات والأرض، وأنه ليس لشيءٍ من آلهتهم شيءٌ في ذلك ولا مشاركة.

وقد قرَّر الله -تبارك وتعالىٰ- هذا التوحيدَ لإثباته وتأكيدِه، والاستدلال به عَلىٰ وجوبِ التوحيد في الألوهية، يعني: في صَرف العبادة لله رب العَالمين.

إذ إن توحيدَ الربوبيةِ يستلزمُ ألا يُعبد إلا الله، فما دامَ اللهُ رب العالمين هو الخلَّاقُ، وما دام الله -تبارك وتعالىٰ- هو الرَّزاقُ، وما دامَ الله -تبارك وتعالىٰ- هو المُنفردُ بالأمرِ والمُلك، فكيف يُصرَف شيءٌ من أمر العبادةِ لغير وجهِهِ الكَريمِ؟!

هذا ما لا يَقبلُه عقلٌ سَليمٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، فهو الذي خلقكم، فما دام هو الذي خَلقكم ولم يشارِكْه

في خلقكم أحدٌ، فينبغِي عَليكم أن تعبدُوه، وأن تُخلِصُوا العبادةَ لوجهِهِ الكَريم.

فجعلَ الله -تبارَك وتعالىٰ- توحيدَ الربوبيةش سَببًا للاستدلالِ عَلىٰ وجُوبِ توحيد الإلهيةِ، يعني: بصَرفِ العبادة للهِ ربِّ العالمين وحدَهُ؛ فقال ربنا -جلت قدرته-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ لماذَا؟ لأنه هُو الذي خَلقكم وخَلق الذين مِن قبلكم، فما دَام هُو الذي خلقَكُم وأنتُم تُقرُّون بذَلك -وهذا توحيدُ الربوبية-، فيجب أن تصرفوا العبادة لوجهه الكريم وحدَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

وقالَ سُبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [الزمر:٦].

وقال سُبحانه: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ﴾ [قريش:٣-٤].

فمَا دام هو الذي يُطعمهم من جوعٍ، وهو الذي يُؤمِّنهم من الخَوف، فينبغي عليهم أن يَعبدُوه.

فذكر تعالىٰ أنه وحده خالقُهم، ورازقُهم، وهذا مما لا يُشكُّون فيه، وجعل ذلك حجةً عليهم في وجوبِ إخلاص العبادة له وحدَهُ لا شريكَ لهُ.

وقالَ ربُّنا -جلَّت قُدرتُهُ-: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩-٦٣].

ففَي هذه الآيات كلِّها يُنكر تعالىٰ علىٰ المُشركين الذي يُقرون بأنه تعالىٰ وحدَهُ هو خَالق السمواتِ والأرض، وأنه وحدَهُ هو النافعُ الضارُّ، بأن هذا الإقرارَ لم ينفعهم، إذ جعلوا مع الله إلهًا آخرَ يدعُونه كما يدعُون اللهَ.

وهذا عينُ التناقضِ المُخالف للشرع والعقل؛ إذ من تفرَّد بجميع هذه التصرفات من الخلق والرِّزق والإحياء والإماتة فحقٌّ أن يُفرَدَ بجميعِ أنواع الطاعاتِ.

ولهَذَا أنكر تعالىٰ عليهم بقولِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقُل تعالىٰ: «أخَالقٌ مع الله»؛ لأنهم لا ينازعونَ في أنه لا خالقَ مع الله، ولكنهم يتخذون آلهةً معبودةً مع الله رب العالمين، لأن الإنسانَ إذا اتخذ شيئًا يعبدُه من دونِ الله رب العالمين بكمال المحبةِ في كمال المَذلَّةِ، يكون له عَابدًا، وقد اتخذه إلهًا.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، فهو يَتَّبع هواه من دُون الله ربِّ العالمينَ.

بيَّن الله تعالىٰ بُطلان الشِّرك في الربوبيةِ، في الخَلق والملك والتدبير والتصرف، وأنه لو كان ذلك لفَسدت السمواتُ والأرضُ، وهذا مُدرَكٌ أيضًا ببداهَةِ العُقولِ.

لو كانَ معَ الله ربِّ العالمين إلَهٌ في هذَا الكونِ يتصرَّفُ أيضًا في هذا الكَون، ويُدبِّر أيضًا في هذا الكون تَدبيرًا؛ لفَسدت السمواتُ والأرضُ.

ولذلك قال ربُّنا -جلت قدرته- لكَي يبطل هذا الأمر علىٰ من يَعتقده ويصير إليه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

إذَن المُسلم ينبغي عليه أن يعتقدَ أن الله -تبارك وتعالىٰ- هو الخلَّاق، وهُو الرزَّاق، وهو مالك الملك، المُدبر للأمر، لا مدبر للأمر في السموات والأرض سِواه.

فإذا اعتقد ذلك؛ فإن ذلك يقُوده لأنَّ ذلك في الغالب لا نزَاع فيه، وكانَ المُشركون يُقرُّون بمُعظم ذَلك، ولم يكُن النزاعُ مع المُشركين في تَوحد الربوبية، في إثبات أن الله -تبارك وتعالىٰ- خلقهم، لأنهم لو سُئلوا: من خَلقهم؟ ليقولُن: الله، من خَلق السموات والأرض؟ يقولُون: إن الذي خلق السموات والأرض هُو الله.

إذن النزاعُ ليس في هذا الأمرِ، وما جاءَ النبي ﷺ لكي يُقرُّوا بأن الذِي خَلق السمواتِ والأرضَ هو الله، وأن الذي خَلقهُم هو الله، فهذَا مُسلَّمٌ في جُملتِهِ في النفوسِ البَشريةِ، إلا عندَ قليلٍ من الدَّهريين في القَديم، وعندَ الشيوعيينَ في الحَديث، نموتُ ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهرُ.

فأين كان النزاعُ إذَن؟

النزاعُ كان وما يزالُ وسيظلُّ في صَرف العبَادة لغيرِ الله.

أنَّهم يُقرونَ بأن الله هو الخلَّاقُ ذو القوةِ، وأن الله رب العَالمين هو الرزَّاق الكريم، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- له المُلك والأمرُ، لا ينازعونَ في ذلك، وإذا سُئلوا عن آلهتهم المعبودَةِ مع الله رب العالمين أو دونَهُ، يقولون: ما نعبدُهُم إلا ليُقربونا إلىٰ الله زُلفَىٰ، إنما نتخذُهُم وسائطَ عند الله رب العالَمين.

ففي أي شيءٍ كان النزاعُ، وما يزال اليومَ قائمًا، وسيظلُّ قائمًا إلىٰ أن يَرثَ الله الأرضَ ومَن عَليهَا؟

النزاعُ في صرف العبادة لغير وجهِ الله الكريمِ، جميعُ أنواع العبادةِ ينبغي أن تُصرفَ لله رب العالمين وحدَه.

النزاعُ كان وما يزال وسيظل في صَرف العبادة لغير وجه الله رب العالمينَ.

فجُعِل توحيدُ الربوبية بإثبات أن الله هو الخَلَّاق ذو القوةِ، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- هو الرزَّاق الكَريم، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- مالكُ المُلك له الأمر، لا ينازِعُه في ذلك أحدٌ، جُعل هذا وسيلةً وسببًا مُفضيًا إلىٰ إثبات توحيدِ الألوهية.

يعني: ما دام الله هو الذي خَلقك، وما دام الله ربُّ العالمين هو الذي يرزُقُك، وما دام الله ربُّ العالمين هو الذي يكلَؤُك من بين يَديك ومن خلفك وعن يَمينك وعن شِمالك ومن فَوقك، وبعظمته لا تُغتالُ من تَحتك، ما دام الله رب العالمين بِيدِه أمرُكَ ظاهره وباطنه، فكيف تَصرِف شيئًا من أنواع العِبادة لغَير وَجهِهِ الكَريم؟!

هذا تناقضٌ لا يَقبله عَاقل؛ لأنَّ الله ربَّ العالمين خالقُك، ورازِقُك، ومدبِّرُ أمرِكَ، وهو كالِئُك، وحافظِكُ وراعيك، وهو الذي أمدَّكَ بأصلِ الحَياةِ، وهُو الذِي نفَخَ فيكَ الرُّوحَ بأمرِ اللهِ -تبارك وتعالىٰ- بوَاسطةِ المَلَك في الرَّحَم.

ما دام الأمرُ كذلك، فكيف يُقبلُ عقلًا أن تَصرف شيئًا من أنواع العبادَة الظاهرةِ والبَاطنة لغير وَجهِهِ الكَريمِ؟

إذن فهذا التوحيد -الذي في الجُملة لا نزَاعَ فيه- يقودُ حتمًا لا مَحالة عقلًا وشرعًا إلىٰ إثباتِ وجوب صَرفِ العبادة لله رب العالمين، بِجميعِ صُوَرها من ظاهِرة وباطنَة، من عباداتِ القلب، وعباداتِ اللسان، وعباداتِ الجوارح؛ فلا يُصرَفُ شَيءٌ من ذلك لغَير وجه اللهِ الكريم.

هذه أولُ فِقرةٍ من فِقرَات اعتقادِ أهل السنة والجماعة، اعتقادِ الفِرقة الناجيةِ، وهو الكلام عَلىٰ ما يتعلَّق بتوحيد الربوبيةِ.

* * *

الاعتقاد الصحيح في توحيد الأسماء والصفات

وهم أيضًا يعتقدون الاعتقاد الصحيح في توحيد الأسماء والصفات.

فمن جملة اعتقاد أهل السنة والجماعة: أنهم يثبتون لله -تبارك وتعالىٰ- ما أثبته لنفسه، في كتابه، أو علىٰ لسان نبيه ﷺ.

*** وعندهم قاعدة ضرورية لا يمكن أن يتجاوزَها واحدٌ من أهل السنةِ سَلفًا وخَلفًا، وهي:**

أنهم لا يتجاوزُون القرآنَ والحَديثَ الثابتَ عن الرسولِ ﷺ، يثبتونَ ألفاظ ذلك، ويعلمون معناهَا في لغة العربِ ولسانِهم الذي نزلَ به القرآن العَظيمُ، وأما الكيفيةُ فيفوضونَها لله ربِّ العالمين وحدَه؛ لأن الله تعالىٰ اختصَّ بها فلم يُطلِع عَليها أحدًا منَ البشَر.

فهم يَنطلِقُون في هذا الباب الخطير من أُسسٍ شَرعيةٍ ثابتةٍ، مَن لَزمها سَلمَ مِن الانحرَافِ، وهذَا أمرٌ مُهمٌّ جدًّا.

فياللهِ كم ضَلَّت فيه من أفهامٍ؟!

وكم زَلَّت فيه من أقدامٍ؟!

وكم انحرفَ في هذا البابِ الخَطيرِ عَن سواءِ الصِّراط المُستقيم جمَاهير كلهَا تسيرُ إلىٰ النار وبِئس القَرار؛ لأنها تُخالف اعتقادَ النبي المُختار، وصحابَتِه الأخيارِ -صلىٰ الله عليه وسلم، ورضي الله -تبارَك وتعالىٰ- عَنهم-!

فمِن ذَلك بَل أولُ ذَلك: إثبَاتُ مَا أثبتهُ الله لنَفسِهِ، فيَجب عَلينا أن نُثبتَ مَا أثبت الله رب العالمينَ لنَفسِه في كتَابه، أو عَلىٰ لسَان نَبيه ﷺ دونَ زيَادةٍ ولا نُقصَان، لأنَّه لَا أحدَ أعلَمُ باللهِ مِن نَفسِهِ.

كمَا قالَ -تبارَك وتعَالىٰ-: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠]، اللهُ ربُّ العَالمين أعلَمُ بنَفسِهِ.

وكذلكَ لا أحدَ أعلمُ بالله -تبارَك وتعالىٰ- بعدَ الله -تبارك وتعَالىٰ- من رسُولِ الله ﷺ.

قال سبحانَهُ عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

فهذا أولُ أمرٍ في هذا البابِ الخطير، الذي لا يَلتفتُ إليه علىٰ وَجهِهِ إلا أهلُ السعادَةِ، ممَّن كتب الله رب العالمين لهمُ الفلاحَ والنجاحَ في الدنيا

وفي الآخرةِ.

فأولُ ذلك: أننا نُثبتُ للهِ رب العالمين ما أثبته لنَفسه في كتابِه أو علىٰ لسانِ نَبيه دونَ زيادةٍ أو نُقصانٍ.

ونُنزِّهُ اللهَ -تبارك وتعالىٰ- عن مشابَهة المَخلوقات في صفاتِهِ، كما قال تعَالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وقالَ -جلَّت قُدرتُهُ-: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

وكذلكَ لا نُحاولُ إدرَاكَ كَيفيَّةِ الصفاتِ؛ فإنَّ الكيفية هي التي تفوضُ إلىٰ عِلم الله ربِّ العالمين، وأما الصفةُ فينبغي أن تثبت، ما دامَ دلَّ عليها الكتابُ، ودلَّت عليها السنة الصحيحةُ الثابتةُ، ويكونُ لها مَعنًىٰ هُو ثابتٌ في لغَةِ العربِ وفي لسَانِهم.

فنُثبت الصفةَ التي يدلُّ عليها الكتاب والسنة، ونثبتُ المعنىٰ الذي تدلُّ عليه تلك الصفة علىٰ مُقتضىٰ الكتاب وعلىٰ مُقتضىٰ سنة النبي ﷺ، وعلىٰ ما دلَّ عليه لسانُ العرب ولغَةِ العرب؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- أنزلَ القرآنَ العظيم بِهذه اللغة الشريفة، ولكن الكيفية نفوضُها إلىٰ الله ربِّ العَالمين.

قال سُبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وقالَ -جلَّت قُدرته-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

فمِن ذَلك علىٰ سبيل المِثال: قولُ ربنا -جلَّت قدرتُه-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. في سبعةِ مواضعَ في القرآن العظيم، فيُستفاد من ذلك: أن نُثبتَ لله رب العالمين ما أثبتَهُ لنفسه في كتابه، ولا أحدَ أعلم بالله ربِّ العالمين من نَفسِهِ.

فإذا قال لنا ربُّنا -تبارَك وتعالىٰ- إنهُ قد استوَىٰ علىٰ العَرش؛ فنثبتُ لله رب العالمينَ ما أثبته لنفسه.

أَوَنَحن أعلمُ بربِّنا -جلَّت قدرَتُه- من نَفسه؟!

هو أثبتَ لنفسه ما أثبته في كتابه، فما الذي يجب علينا نحنُ أهلَ السُّنة والجماعةِ مِن أتباع رسولِ الله ﷺ؟

في هذا البابِ نثبت لله رب العالمين ما أثبتَهُ لنفسه في كتابِهِ، أو علىٰ لسَانِ نَبيه ﷺ.

ونعلمُ أن اللهَ -تبارَك وتعَالىٰ- أنزَلَ القُرآن العَظيمَ بِهذه اللغةِ العَربية

الشَّريفة، ولألفاظهَا معانٍ، وهذِه المعاني يَنبغي أن تكونَ واضحةً، بل هي واضحَةٌ في أذهَانِ الذين يَتكلمونَ بِها ويعرفونَها.

والله ربُّ العَالمين لم يجعَلِ القرآنَ ألغازًا، ولم يَذكر لنا فيه -جلَّت قُدرتُه- مثل هذِه الصفاتِ العظيمة التي هي ممَّا يَعلمُه الله رب العالمينَ عن نفسه بنفسِهِ لا يعلمُه عنهُ أحدٌ من خَلقه إلا بتَعليمِهِ -جل وعلا-.

فلمَّا ذَكر لنا ربُّنا -تبارك وتعالىٰ- ذلكَ بِهذه اللغة؛ وَجب علينا أن نُثبت ما أثبتَ لنفسه -جل وعلا-، ثم نثبت المَعنىٰ الذي تدلُّ عليه الصفة.

فنثبت استواء الله علىٰ العرش استواءً حقيقيًّا، نعرفُ معناه ونجهلُ كيفيته، أما كيف؟ فذلك ليس إلىٰ أحدٍ من الخلق، وإنما ذلك لله ربِّ العالمين وحدَهُ.

لا يُقال: كيفَ استوىٰ؟ ولكن يُثبت استواء الله رب العالمين علىٰ العَرش.

نثبت لله رب العالمين ما أثبت لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسان نبيه ﷺ؛ لأن الله -جلَّت قدرتُه- هو أعلم بنفسِه من كل أحد، ثم إن نبيهﷺ أعلمُ به -جلت قدرته- من كل خَلقِه، وهو لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحيٌ يوحَىٰ.

فعَلينا إذن إذا ما مرَّت علينا صفةٌ من صفات الله ربِّ العالمين في القرآن العظيم، أو في سُنة النبيِّ الكريم ﷺ أن نُثبت ذلك لله، نقولُ: سَمعًا وطاعةً، ربُّنا أعلم بنفسه من كل أحد، ونبيُّه ﷺ أعلمُ بربِّه من جميع خلقه، وهو لا ينطق عن الهَوىٰ إن هُو إلا وحيٌ يوحىٰ.

فنثبتُ لله ما أثبت لنفسه في كتابه أو علىٰ لسان نبيه ﷺ، ونثبت المعنىٰ الذي دلَّت عليه الصفة، وأما الكيفية فلا يمكن إلا أن نفوضها لله رب العَالمين خالق البَرية، أما الكيفية فمفوضة لباري البرية لله رب العالمين وحده، كيف استوىٰ؟

إذا كنتَ لا تحيط بشيءٍ من علمه إلا بما شاء، فكيف تُحيط بعلمه جَميعه؟

وإذا كنتَ لا تحيطُ بشيءٍ من عِلمه إلا بما شاء، ولا تستطيعُ أن تحيطَ بعلمه -جل وعلا-، أو بشيءٍ منه إلا بمشيئته -جل وعلا-، فكيف تحيطُ بذاته -جل وعلا-؟!

ذلك فوق الفهم، وفوقَ الوَهم؛ وإنما نُثبت لله ما أثبتَه لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسانِ نبيِّه، ونثبتُ ما دلَّت عليه الصفَةُ مِن مَعنىٰ.

قالَ: استوَىٰ، نقولُ: استوَىٰ.

أما: كيفَ استوَىٰ؟

هذا أمرٌ مُفوَّضٌ لله رب العالمين وحدَهُ.

وقومٌ قالوا: إن استوَىٰ يعني: استولَىٰ، والاستيلاءُ علىٰ الشيءِ لا يكونُ إلَّا بعدَ مُغالَبةٍ، فمن الذي يُغالِب الله ربَّ العالمين ويُنازعه في عَرشه، ثُم استولىٰ الله ربُّ العالمين علىٰ عَرشه بعد المُغالَبة وبعد المُخاصَمة علىٰ عَرشه؟! سبحانَ اللهِ العَظيم!

اليهودُ قيلَ لَهُم: قولُوا: حِطَّةٌ وادخُلوا الباب سُجدًا، فقالوا: حِنطَة، وزادُوا النونَ هاهُنا.

قيلَ لهم: قولوا: حِطَّة وادخُلوا البابَ سُجدًا، يعني: حُطَّ عنا خَطايانا، وادخُلوا البابَ ساجِدين تزحَفُون بسُجودكم حتىٰ تدخُلوا البابَ، فماذا قالوا؟ قالوا: حِنطَةٌ. وهي القَمح المعروفُ، ودخلوا علىٰ أستَاهِهم، كما يفعلُ الصبيُّ الذي لا يستطيعُ الحَبو بعدُ، فخالَفوا الكتابَ، وخالَفوا الأمرَ.

وجاء أقوامٌ ينازعون في الصفات ويضلون في هذا الباب عن معتقد الفرقة الناجية، عن معتقد أهل السنة والجماعة، عن معتقد رسول الله ﷺ

وصحَابته الكرام.

قال لهم ربُّهم -جل وعلا-: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، فزادُوا اللام؛ يُشبهونَ اليهود في زيادَة النون في حِنطة، فقال لهم ربُّهم: استوىٰ؛ فقالوا: استولىٰ.

وهذا شيءٌ عجيب!!

إذا قال الله رب العالمِينَ: إنَّ له يدًا، نثبتُ ما أثبتَ لنفسِهِ، ونُفوضُ الكيفيَّةَ لله رب العالمينَ وحدَهُ.

فإذا قال لكَ قائلٌ: إن اليدَ هي القُدرة.

فقل له: إنَّ الله رب العالمين يقولُ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، إذَن فأثبَتَ لنفسِهِ يَدَين، فهل له قُدرتَان، فمَا هذَا السُّخفُ؟!

مَا الذي عَلينا نحنُ أهلَ السنَّةِ والجَماعةِ، ما الذي ينبغِي علينا نحنُ؛ عَلىٰ الفِرقة الناجيةِ، ما الذِي ينبغي علينا نحنُ أهلَ المُعتقدِ الصحيح مُعتقدِ رسُول اللهﷺ، وصحابته الأطهار في هذا البابِ الخَطير؟

الذي يجِبُ عَلينا في الأسماءِ والصفاتِ: أن نثبت لله -تبارك

وتعالىٰ- ما أثبته لنفسه من صفاته في كتابه أو علىٰ لسان نبيه، ونثبت المعنىٰ الذي تدل عليه الصفة، لا يسعنا إلا ذلك.

ولكن في هذا الباب ضميمة لابد منها، وهي أن الكيفية مُفوضة لله رب العالمين وحده، كيف؟ لا يقال كيف هاهنا، وإنما يقول ذلك أهل البدع، كما قال الإمام مالك -رحمة الله عليه-.

فأول ما ينبغي علىٰ العبد المسلم أن يعلمه، وأن يتحفظه، وأن يحفظه، وأن يجعله أول ما يعقد عليه الخِنصر: هو أن يُحصِّل اعتقاد أهل السنة والجماعة؛ لأنه إن لم يحصله كان من أهل البدع، وأما المعتقد الصحيح فأهله هم أهل الفرقة الناجية؛ أهل معتقد رسول الله ﷺ.

والمعتقد الصحيح: هو معتقد رسول الله ﷺ؛ جاءنا النبيﷺ بالقرآن العظيم وهو مشحونٌ بآيات تثبت الصفات للرب العلي الأعلىٰ، لكي يتعرف الناس علىٰ ربِّهم.

بل أخبرنا الله -تبارك وتعالىٰ- في القرآن المجيد أنه ما خلق السموات السبع، والأرضين السبع، وما جعل الأمر متنزلًا بين السماء والأرض شرعًا وقدرًا إلا لنتعرف علىٰ الله رب العالمين بأسمائه وصفاته:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢].

فبيَّن الله -تبارك وتعالىٰ- أنه خلق سبع سموات، وخلق سبعَ أرَضِين، وجعل الأمر متنزلًا، يتنزل الأمر بينهن -بين السموات السبع والأرَضين السبعَ-، شرعًا وقدرًا، لأجل ماذا؟

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾.

فكأن الله -جلت قدرته- ما خلق السموات السبع والأرضين السبع، وما أنزل الشرائعَ، وأرسل الرسلَ، وأنزل الكتبَ، ونبأ الأنبياءَ، إلا من أجل أن نتعرف علىٰ الله ربِّ العالمين بأسمائه وصفاته، فإذا ما عَرَفنا ربَّنا -جلَّت قُدرتُه- أخلصنا العبادة لوجهه الكريم.

فالقرآن العظيم مشحونٌ بآيات فيها صفاتٌ لله رب العالمين، لنتعرف علىٰ ربنا، ولنعرف ربنا -جل وعلا- الذي نعبدُه، ونُقدسُهُ، ونُوكلُ أمورَنا كلَّها إلَيه، خاضِعين خاشعينَ أذلَّاء مُطِيعينَ.

في القرآن العظيم آياتٌ كثيرة، وكذلك في سنة النبي ﷺ أحاديث كثيرة، تثبت لله رب العالمين من الصفات ما ينبغي أن نؤمن به وأن نعتقده.

والعقل قاضٍ بأن الله -تبارك وتعالىٰ- إذا أخبَرنا بشيءٍ فينبغي علينا أن نأخذ به وأن نعتقده، وأن نعمل به في هذه الحياة؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- أعلمُ بنفسِهِ من كلِّ أحدٍ.

والعقلُ قاضٍ بأن النبي ﷺ إذا أخبرنا بشيءٍ عن ربنا -جل وعلا- فينبغي علينا أن نعتقده، وأن نعملَ به في هذه الحياة؛ فلا أحدَ من الخلق هو أعلمُ بالله ربِّ العالمين من نبيه ﷺ.

فإذن؛ نُثبت لله -تبارك وتعالىٰ- ما أثبتَه لنفسِهِ في كتابِهِ، أو عَلىٰ لسانِ نبيه ﷺ.

وهذا مُهمٌّ جدًّا هذا الباب؛ لأنه هو الذي وقعت فيه أكبر خصومةٍ بين الفِرَق المُنتسبة للقِبلة من أهل الإسلامِ.

في هذا الباب، ضَلَّت أفهامٌ، وزلَّت أقدامٌ، وصارَ إلىٰ النار بسَببِهِ كثيرٌ من الأنامِ، ولم يَخلُص من ذلكَ علىٰ الطريقِ المُستقيم إلا مَن رَحم اللهُ رب العَالمينَ.

فنُثبتُ لله ربِّ العالمين ما أثبتَه لنفسِه في كتابِهِ، أو علىٰ لسَانِ نبيِّه ﷺ.

ونعلمُ أن الله -تبارك وتعَالىٰ- خاطَبَنا في القرآنِ العظيم بلُغةٍ، واللغةُ

لها ألفَاظٌ بمَدلُولاتٍ، فكُلُّ لفظٍ أثبتَهُ اللهُ -تبارك وتعالىٰ- في إثبات صفةٍ من صفاتِهِ له مَعنىٰ، والقرآنُ العظيم هو القِمة العُليا في الفصاحةِ والبلاغة والبيَان.

فإذَن؛ كانَ مَقصودًا أن يخبِرَنا الله -تبارك وتعالىٰ- بمَا أخبَرنا به من تلك الألفاظ الدالةِ علىٰ صفَاتِه في آياتِ الصفاتِ، وكذلك ما أخبَرنا به نَبينا محمدﷺ، فلسنَا أعلمَ بربنا من رَبنا، ولسنَا أعلمَ بربنَا من نبينَاﷺ.

فإذا قال لنا ربُّنا -جلَّت قُدرتُه- في سَبعة مواضعَ من القرآن العظيمِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، فلا نقولُ نحن: لا، لَم يستو. لمَاذا؟ لأننا لو أثبتنا الاستواء -كما يدَّعي الجهميةُ، والمُعطِّلةُ للصفاتِ- نكون قد شبَّهنا وجسَّمنا، وغير ذلك من تلك التُّرَّهَاتِ.

وليس كذلك؛ لأنهم ليسُوا بأعلم بالله رب العالمين من الله رب العَالمين، وليسوا أعلمَ بالله رب العالمين من النبي الكريمﷺ.

فإذا قال لنا ربنا -جلت قدرته-: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾.

نَقُولُ: سَمْعًا وَطَاعًا، نُثبتُ لله رَبِّ العَالَمِينَ صِفَة الاستِوَاءِ عَلَىٰ العَرْشِ.

وأما الكيفية: فالصفة تكون علىٰ قدر الذات، وذات ربنا ليس كمثلها ذات، فصفات ربنا ليس كمثلها صفات.

وإذا كنا لا نستطيع أن نحيط بشيءٍ من علمه إلا بما شاء، فكيف نحيط بذات ربنا -تبارك وتعالىٰ-.

والأمر في باب الصفات كالأمر في باب الذات.

يعني من قال لك: لا نثبت لله رب العالمين هذه الصفات، كما أخبر بها الله رب العالمين في القرآن العظيم، وكما أخبر بها النبي الكريم ﷺ، من قال لك ذلك؛ فقل له: إن الأمر في باب الصفات كالأمر في باب الذات.

فسيقول لك: كيف؟

قل له: ألست تثبت ذاتًا ليس كمثلها ذات، أم أنت تعبد عدمًا؟

سيقول لك: أثبت ذاتًا ليس كمثلها ذات.

تقول: لما أثبتَّ الذات، كان هنالك شيءٌ من المشابهة بين الخالق العظيم وبين المخلوق الحقير؟

فسيقول لك: حاشا وكلا، بل هي ذاتٌ ليس كمثلها ذات.

قل له: فأثبت الصفات، ليس كمثلها صفات؛ لأن الصفات تتفاوت علىٰ قدر الذوات، فكل ذاتٍ موصوفة بصفة تكون صفتها علىٰ قدر تلك الذات الموصوفة بتلك الصفة.

ولذلك يقول ربُّنا -جل وعلا- في هذا الباب الخطر عند من لم يتأمَّله، ومن لم يتحرَّه، ومن لم يأخذ فيه بِهَدي محمدﷺ، يقول ربنا -جلَّت قدرتُه-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فنفىٰ الله رب العالمين المشابهة والمثلية، وأثبت الله رب العالمين الصفة.

فأثبت الله رب العالمين لنفسه صفة السمع، وأثبت لنفسه صفة البصر، وأما كيف؛ فهذا مُفوَّضٌ إلىٰ الله رب العالمين، لماذا؟

لأن الصفة تكون علىٰ قدر الذات الموصُوفة، وذاتُ ربِّنا ليس كمثلها ذاتٌ؛ فكذَلك صفاتُ ربنا ليس كمِثلها صفاتٌ.

يقولُ ربُّنا -جلَّت قدرتُه-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

ويخبرنا ربنا -تبارك وتعالىٰ- في كتابِهِ العَظيم: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾

[البقرة:١٤٠].

ويقول لنا ربنا -تبارك وتعالىٰ- عن نبينا محمدٍ ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

فلا يدرك أحدٌ كيفيةَ صفاته تعالىٰ، ولا يحيطون به علمًا.

ويقول -جلت قدرته-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

من صفات الله رب العالمين: صفة الاستواء، أثبتها الله رب العالمين لنفسه في كتابه، وأثبتها له نبيه ﷺ في صحيح صريح سنته، فنثبت لله ما أثبته لنفسه في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، لا يسعنا إلا ذلك.

ولكن نقول: الاستواء له معنًىٰ معلوم، ونحن نثبته لربنا كما أثبته لنفسه في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، ولكن كيفية الاستواء تكون علىٰ قدر الذات، وذات ربنا ليس كمثلها ذات؛ فاستواء ربنا ليس كمثله استواء، وينتهي الأمر، فنثبت لله رب العالمين ما أثبته لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسان نبيه ﷺ.

الله -تبارك وتعالىٰ- وصف نفسه بصفة العلو، وأنت تجد في نفسك ضرورة أنك عندما تدعو يتوجه قلبُك ضرورةً إلىٰ جهة العُلو.

وعندما تكون ساجدًا تقول: سُبحان ربي الأعلىٰ، يتعلقُ قلبُك ضرورةً بجهة العلوِّ.

فهذِه ضرورةٌ جعلها الله رب العالمين في قلوب خَلقه، أنهم يُثبتون لله رب العالمين صفة العُلو، علو الفوقيَّة، فوقيَّة الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ عَرشه، واستوائه -جلت قدرته- علىٰ عرشه العظيم، عالٍ علىٰ جميع خلقه، بائنٌ منهم.

فليس ﷻ بداخلٍ في شيءٍ من خَلقه، ولا شيءٌ من خلقه بداخلٍ فيه -جلَّت قدرته-، بل للهِ رب العالمين صفاتُ الكمال والجمالِ والجَلال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فله علوُّ الفوقية، يعلم ما هُم عليه، قد أحاط بكل شيءٍ علمًا، ولا يخفىٰ عليه منهُم خافية، وهو ﷻ مستوٍ علىٰ عرشِه، كما أخبَر عن نفسه -جلَّت قُدرتُه-.

وله علوُّ القهر؛ فلا مغالب له:

..... **وليُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ**

لأن الله -تبارك وتعالىٰ- لا غالبَ له، ولا رادَّ لأمره، ولا مُعقِّب

لحُكمه، ولا منازعَ ولا مضادَّ ولا مُمانع لِمَا قضاهُ وقدَّره؛ لأن الله رب العالمين فعالٌ لما يُريد، يفعل ما يشَاء ويحكُم ما يريد.

فكل شيءٌ خاضعٌ لعظَمته، ذليلٌ لعزته، مستكينٌ لكبريائه، تحت تصرُّفه وقهرِهِ، لا خروجَ له من قَبضتِهِ.

فله علو الفَوقية، وله علو القَهر، وله علو الشأن؛ فجميع صفات الكمال له ثابتة، وجميع النقائص عنه مُنتفية -عز وجل سبحانه وتعالىٰ وتبارك في ملكوته، جلت قدرته، وتقدَّست أسماؤه-.

فجميعُ هذه المعاني متلازمة لا ينفكُّ معنًىٰ منها عن الآخر.

أثبت الله رب العالمين لنفسه سمعًا، أيسعُك أنت أن تنكر ما وصَف الله رب العالمين به نفسه؟!

الله رب العالمين هو السميع البصير، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فنثبت لله رب العالمين صفة السمع، ونقول: إن لهذا معنًىٰ تدل عليه

لغة العرب، وأما الكيفية فمفوضة إلىٰ الله رب العالمين.

لا تقل: كيف سمع الله -تبارك وتعالىٰ-؟

ولا تقل: كيف بصر الله رب العالمين؟

الكيفية مفوضة إلىٰ الله رب العالمين..لماذا؟

لأن الصفة تكون علىٰ قدر الذات الموصوفة بتلك الصفة، وصفات ربنا -تبارك وتعالىٰ- علىٰ قدر ذاته، وذاتُه ليس كمثلها ذات؛ فصفاتُه ليس كمثلها صفات.

وإذن فالله رب العالمين مطَّلعٌ علىٰ خلقه، لا يخفىٰ عليه شيءٌ منهم أبدًا، وَسِع سمعُهُ جميع المَسموعاتِ؛ حتىٰ إن عائشة -رضوان الله عليها- تقول: إن المُجادِلَة كانت تُجادِلُ النبيﷺ في زاويةِ الحُجرة، ولا يخفَىٰ عليَّ من أمرِها إلا كلَّ ما تقُول إلىٰ النبيﷺ، لا أكاد أسمعُ شيئًا، بل لم أسمع شيئًا مما كانت تجادِلُ به النبيﷺ.

وهي في حُجرة عائشة، وعائشة في حُجرتِها -رضوان الله عليها-، والمُجادِلة تجادلُ نبينا مُحمدًاﷺ.

فعائشة لم تسمع شيئًا، وأنزل الله رب العالمين ما أنزل في شَأن المَرأة المُجادلة، فتقولُ عائشة: سبحانَ من وَسِع سمعُهُ الأصوات، والله إن كنتُ لهُنالك لا أسمعُ من كلامها شيئًا، فأنزلَ الله رب العالمين قولَهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١].

فتقول: أنا لم أسمع شيئًا، ولكن الله رب العالمين وهو مستوٍ علىٰ عرشه -جلت قدرته-، سمع مُجادلَةَ هذه المَرأة للنبي ﷺ.

فنثبت لله رب العالمين ما أثبته لنفسه في كتابِهِ أو علىٰ لسان نبيهِ في إطارِ قولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وفي إطارِ هذه القاعدةِ العظيمة من قواعدِ الأسماء والصفات، وهِي: أن الصفة تكون علىٰ قَدرِ الذات، وذاتُ ربِّنا ليس كمثلِهَا ذاتٌ، فصفَاتُ ربنَا ليس كمثلهَا صفاتٌ.

فإن نازَعكَ أحدٌ من أولئك الحَمقىٰ، من الجهمية والمعطلة والمؤولة الذين يؤولونَ صفاتِ الله -جل وعلا-، ويُعطلون الله رب العالمين عن صفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسان نبيه.

إن جادلك أحدٌ من أولئك الحَمقىٰ، فقل له: أتثبت للهِ ذاتًا ليس

كمثلها ذَاتٌ؟

يقول لك: أُثبت لله ذاتًا ليس كمثلها ذات، لأنه إن قال: لا أثبت لله ذاتًا أصلًا؛ فهو عابدٌ للعدم، فقد نفىٰ وجود الله رب العالمين، فلا يسعه إلا أن يُقرَّ ويعترف بإثبات ذات ليس كمثلها ذات.

قل له: إن الأمر في باب الصفات كالأمر في باب الذات، فكما أثبت لله رب العالمين ذاتًا ليس كمثلها ذات، ولم تكن ممثِّلًا، ولا مشبِّهًا، ولا مُجسِّمًا، فأثبت لله الصفات ليس كمثلها صفات، والصفاتُ علىٰ قدر الذوات، وذات ربنا ليس كمثلها ذات؛ فصفات ربنا ليس كمثلها صفات.

وينتهي الأمر بإثبات ما أثبت الله رب العالمين لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسان نبيه ﷺ.

وتأمل في هذا الحديث العظيمَ، الذي رواه مسلمٌ في صحيحه عن أبي موسىٰ الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ لا ينَامُ، ولا يَنبغِي لهُ أن ينَامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويرفَعُهُ، يُرفعُ إلَيه عمَلُ الليلِ قَبلَ عَملِ النهَارِ، وعَملُ النهَارِ قَبلَ عَملِ الليلِ، حِجابُهُ النُّورُ، لَو كَشفَهُ لأحرَقَتْ سُبُحاتُ وَجهِهِ مَا انتَهَىٰ**

إلَيهِ بَصرُهُ مِن خَلقِهِ»[1].

وإذن؛ فثبت أن لله بصرًا حقيقيًّا، يُدرك به -جلت قدرته- المُبصَرَاتِ، إلَّا أنَّ كيفيةَ هذا البَصر هذه الصفة لا يُحيط بِها أحدٌ؛ فهي مُفوضة إلىٰ الله رب العالمين.

نثبت لله رب العالمين ما أثبته لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسان نَبيهِ ﷺ.

وأما الذين ينكرون ذلك؛ فيَعبدون عدمًا.

وأما الذين يُشبِّهون ويُجسمُون؛ فإنَّهم يعبدونَ صَنمًا.

وأما أصحاب المعتقد الصحيح أهل السنة والجماعة من أتباع محمدٍ ﷺ؛ فيعبدون الربَّ الأجل الأعلىٰ، الذي وصف نفسه بصفاتِ الكمال والجمَال والجلال، ووصفه بِها نبيُّهُ ﷺ.

فنعبُدُ ربَّنا الذي له جَميع صفات الجمال والكمال والجَلال، ونثبتُ ذلك لربنا كما أثبته لنفسه في كتابِه، أو علىٰ لسان نبيهِ ﷺ، ونثبت ذلك تفصيلًا للهِ رب العالمين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

نثبت لله صفاتِ الكمال تفصيلًا عدًّا سردًا؛ لأنه كلما ذُكرت، وكلما سُرِدَت، وكلَّما عُدَّت، وهي لا يمكن أن تُعدَّ، بل هي لا تتناهَىٰ أبدًا، لأن كمالاتِ ربِّنا لا عدَّ لها، ولا يُحصيهَا أحدٌ.

نثبت لله رب العالمين صفات الكمال والجمال والجلال، ونسرد ذلك ونعده، ونأتي به سردًا.

وأما صفات النقصِ، فإن الله رب العالمين مُنَزَّهٌ عن جميع صفات النَّقص جملةً، فلا نُفصل في النفي، ولا نُفصل في نفي صفات النقصِ عن الله رب العالمين.

لأنك لو دَخلت علىٰ المَلك في حضرتِهِ، فقلت له: إن المَلك -أعزه الله- ليس بزبالٍ ولا حجَّامٍ ولا كناسٍ ولا حقيرٍ، وليس بإنسانٍ قليل المروءة، لو أنك أخذت تنفي عنه علىٰ سبيل التفصيل لابد أن يعاقبك؛ لأنك تكون مسيئًا إليه.

صفات الكمال نثبتها لله رب العالمين تفصيلًا لا إجمالًا، وأما صفات النقص فمنفية عن الله رب العالمين إجمالًا، وننفي عن الله رب العالمين ما نفاه عن نفسه في كتابه، أو علىٰ لسان نبيه ﷺ.

«**إِنَّ اللهَ لا ينَامُ**» فننفي عن الله -تبارك وتعالىٰ- هذه الصفَةَ، لأنها صفةُ نَقصٍ.

﴿**لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولا المقدمات التي تكون بين يدي النوم، تأخذ بمعاقِد الأجفان، حتىٰ يأتِيَ لذيذُ الغُمض، هذا لهؤلاء الخلق في الأرض؛ لأنهم عجزة لا يملِكُون لأنفسهم حَولًا ولا حِيلةً.

وأما الله العلِيُّ الأعلىٰ، فإنه لا ينام، ولا ينبغي له أن ينامَ، الله رب العالمين يُنفىٰ عنه النوم، ويُنفىٰ عن الله رب العالمين الظلم، الله رب العالمين ننفي عنه -جلت قدرته- من الصفات ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه نبيه ﷺ.

وأما ما عدَا ذلك فلا ننفيه عن الله رب العالمين تفصيلًا، وإلا نكون قد أسأنا، وإنما ننفي كلَّ صفات النقص عن الله رب العالمين إجمالًا.

هذا الباب من أخطر الأبوابِ في مسألة الاعتقادِ، ضلَّ فيه أقوامٌ، وزلَّت فيهِ أقدامٌ، وضلَّت فيه أفهامٌ، وانحرَفَ عن القَصد القاصِدِ فيه كثيرٌ من المسلمين، وأما الذين يُحققُون المعتقدَ الصحيح، فإنهم يَسيرون علىٰ قَدَم النبي الأمين محمدٍ ﷺ.

فالعلم بالله -تبارك وتعالىٰ- وبأسمائه وصفاته من الأمور التي ينبغي أن تكون أول ما يُعقد عليه الخنصر في العدِّ في تحصيل أصول العلم؛ لأن هذا هو أصل الأصول.

والذين لا يعرفون الله -تبارك وتعالىٰ- بأسمائه الحسنىٰ وصفاته المثلىٰ لا يقدرون الله حق قدره.

فتجد الواحد منهم وهو صعلوك مفلوك، يذل لجميع أهل الأرض، ولا يشمخ إلا علىٰ أوامر الرب ربِّ الأرض والسموات العلا، وما ذلك إلا لجهله بصفات ربه، ولأنه لا يدري عن ربه -تبارك وتعالىٰ- بأسمائه الحسنىٰ وصفاته المثلىٰ شيئًا.

وأما الذين يثبتون لله -تبارك وتعالىٰ- ما أثبت لنفسه في كتابه أو علىٰ لسان نبيه، فإنهم يقدرون الله -تبارك وتعالىٰ- حق قدره؛ لأنهم يعلمون أن الله -تبارك وتعالىٰ- هو مالك الملك، وهو ﷻ المتصف بجميع صفات الجمال والجلال والكمال.

وحينئذٍ يرهبونه، ويخشون عذابه، ويحبونه، ويرغبون فيما عنده، فيتساوقون في السير إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- بجناحي الخوف والرجاء، وأما

قلب الطائر بين هذين الجناحين: فالإخلاص لله رب العالمين.

وبين الخوف والرجاء بمعرفة أسماء الله -تبارك وتعالىٰ- وصفاته -جل وعلا-، مع هذا القلب النابض بالإخلاص لله رب العالمين يكون الوصول إلىٰ رضوان الله رب العالمين.

الذين يجهلون الأسماء والصفات لا يمكن أن يقدروا الله رب العالمين حقَّ قدْره، بل إنهم عندما يجهلون أسماء الله -تبارك وتعالىٰ- وصفاته، فإنهم يتخذون إلهًا معبودًا من دون الله رب العالمين، ليس هو الذي دلت علىٰ أسمائه وصفاته آيات الله رب العالمين، وأحاديث نبيه الكريم ﷺ.

لأن الله -تبارك وتعالىٰ- جعل هذا الباب توقيفيًّا، بحيث لا يجوز لأحدٍ أن يسمي الله -تبارك وتعالىٰ- باسمٍ لم يسمِّ الله به نفسه، ولم يسمه به نبيه ﷺ، وجعل ذلك من الإلحاد في الأسماء والصفات.

فالذين يصفون الله -تبارك وتعالىٰ- بأنه المهندس الأعظم لهذا الكون، أولئك أقرب ما يكونون إلىٰ الماسونيين إلىٰ تلك الفرقة الباطنية في نحلتها ومعتقدها من هدم الأديان، والسعاية في تحقيق ذلك؛ ليعلو الشر علىٰ الخير، وليعلو الباطل علىٰ الحق، وهيهات.

والذين يصفون الله -تبارك وتعالىٰ- بأنه الفنان الذي لونت ريشته هذا الكون بتلك الألوان البديعة، ونظمتها ذلك النظام الحسن، والتنظيم البديع، هؤلاء يلحدون في الأسماء والصفات.

والذين يقولون من الفلاسفة: إن الله هو العلة الأولىٰ، يلحدون في أسماء الله -تبارك وتعالىٰ- وصفاته.

لا ينبغي أن يُسمىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- ولا أن يوصف إلا باسمٍ أو صفة، وورد ذلك في كتاب الله رب العالمين، أو علىٰ لسان نبيه الأمين ﷺ، فهذا بابٌ غيبيٌّ محض توقيفيٌّ صرف، لا يجوز لأحدٍ مهما كان أن يتجاوز فيه حده، أو يتعدىٰ فيه قدره؛ وإنما يتوقف عند حدود الوارد في الكتاب والسنة.

هذا الباب بابٌ توقيفيٌّ محض، بمعنىٰ: أنه لا تتجاوز فيه النصوص.

الذين لا يعرفون الأسماء والصفات، ولا يحققون هذا الباب التحقيق الصحيح، لا يعرفون الله رب العالمين، ولا يقدرون الله رب العالمين حق قدره.

وأغلبهم يعبد صنمًا؛ لأنهم يشبهون الله -تبارك وتعالىٰ- بخلقه وهم

لا يعلمون.

وآخرون منهم يعبدون عدمًا؛ لأنهم يعطلون الله رب العالمين عن أسمائه وصفاته، وما ثبت لله رب العالمين في كتابه أو علىٰ لسان نبيه ﷺ.

وأما أصحاب المعتقد الصحيح، وأما أهل السنة والجماعة من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، فإنهم يعرفون صفات الله -تبارك وتعالىٰ-، ويثبتون لله رب العالمين ما أثبت لنفسه.

ولا يَثبتُ لله رب العالمين في القرآن العظيم ولا في سنة النبي الأمين ﷺ إلا كلُّ صفات كمالٍ وجمالٍ وجلالٍ تليق بذات الله -تبارك وتعالىٰ-.

وأما صفات النقص: فمنفيةٌ عن الله -تبارك وتعالىٰ- جملة، وما نفاه الله -تبارك وتعالىٰ- عن نفسه في كتابه أو علىٰ لسان رسوله من صفات النقص بالتنصيص علىٰ نفيه، فذلك يكون لمناسبات تُبحث عندما يُوصل إلىٰ ذلك الموضع من صفات الله -تبارك وتعالىٰ-.

فإذا ما نظرت في الموضع عند السياق وجدت العجب باديًا؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- عندما ينص في القرآن العظيم، أو علىٰ لسان نبيه الأمين ﷺ علىٰ نفي صفة من صفات النقص بالنص عليها بالتفصيل فيها ذكرًا، من غير

ما تفصيلٍ في صفات النقص نفيًا.

عندما تجد ذلك في سياقه تجد العجب باديًا، والحُسن ظاهرًا، وتجد السياق متساوقًا متناغمًا مع ما هنالك من إثباتٍ لما يريد الله رب العالمين أن يُعلم به خلقَه من صفات كماله وجلاله وجماله، ونفي كل سوءٍ ونقص عن ذاته المقدسة.

لما كان ذلك كذلك علىٰ هذا النحو، وكان الله رب العالمين هو الخلاق، وهو مالك الملك، وهو المدبر، وله الأسماء الحسنىٰ والصفات المثلىٰ؛ فقد وجب حتمًا أن يُعبد اللهُ ربُّ العالمين وحدُه.

* * *

المعتقد الصحيح في توحيد الألوهية

دعا النبي ﷺ الناس إلىٰ توحيد الله رب العالمين، وإلىٰ إخلاص العبودية لوجهه الكريم، بصرف العبادة -جميع العبادة- ظاهرةٍ وباطنة لله رب العالمين وحده.

وجعل الله -تبارك وتعالىٰ- في القرآن من الآيات الكثير، وكذلك ساق علىٰ لسان نبيه ﷺ من الأحاديث الكثير؛ ليدل الناس علىٰ أن الله -تبارك وتعالىٰ- ينبغي أن يُفرَد بفعله -جل وعلا-؛ إذ هو المتفرد بالخلق والأمر والملك والتدبير، فهو الخلاق العظيم، وهو ﷻ مالك الملك، لا مالك لشيءٍ من الملك علىٰ الحقيقة سواه، وهو المدبر للأمر -جل وعلا-.

وقرَّر الله -تبارك وتعالىٰ- أن هذا الأمر ثابتٌ مؤكد مغروسٌ في النفس الإنسانية، بحيث إن الكفار لا يجادلون فيه، حتىٰ إنهم إذا ما سئلوا أقروا بذلك، وقالوا: إن الذي خلقهم هو الله رب العالمين.

فجعل الله رب العالمين ذلك سبيلًا موصلةً إلىٰ إثبات أنه ينبغي أن تُصرف جميع ألوان العبادة لله رب العالمين وحده.

لأنه إذا ثبتت ربوبية الله -تبارك وتعالىٰ- لهذا الكون، وأنه هو

الخلاق العظيم، وأنه مالك المُلك، ومدبر الأمر، فإن العقل يقضي ببداهته مُتساوقًا مع الفطرة في حقيقتها بأنه ينبغي ألا يُعبد إلا الله.

والله رب العالمين -جلت قدرته- خلق السموات السبع، والأَرَضِين السبع، وجعل الأمر متنزلًا بينهن قدرًا وشرعًا؛ ليعلم الناسُ صفاتِ الله -تبارك وتعالىٰ-، وليعلم الناسُ ما لله رب العالمين من الأسماء الحسنىٰ والصفات المثلىٰ.

إفراد الله -تبارك وتعالىٰ- بالعبودية، فأهل السنة من أصحاب الفرقة الناجية لا يعبدون مع الله إلهًا آخر؛ فيصرفون جميع الطاعات التي أمر الله بها أمر إيجابٍ أو استحبابٍ لله وحده لا شريك له.

لا يسجدون إلا لله، ولا يطوفون إلا بالبيت العتيق، ولا ينحرون ولا يذبحون إلا لله، ولا ينذرون إلا لله رب العالمين، ولا يحلفون إلا بالله رب العالمين، ولا يتوكلون إلا علىٰ الله رب العالمين، ولا يدعون إلا الله رب العالمين.

ولا يقدمون في القلب محبة علىٰ محبة الله رب العالمين، ولا رجاءً علىٰ رجاء الله رب العالمين، ولا خوفًا علىٰ الخوف من الله رب العالمين،

ولا شفقةً علىٰ الشفقة من عذاب الله رب العالمين، فهم لله..وبالله..ومع الله.

وهَذا هُو تَوحيدُ الألوهِيَّةِ.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة:٣١].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ومعنىٰ يعبدون: يوحِّدُون.

وضد ذلك: الشرك -أعاذنا الله تبارك وتعالىٰ منه-، وهو أعظم ذنبٍ عُصي الله -تبارك وتعالىٰ- به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

وقال -جلت قدرته-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ

ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

وقال -جلت قدرته-: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

فانظر إلىٰ صورة المشرك بالله رب العالمين، وتأمل في هذا المثل المادي الذي ضربه الله رب العالمين مثلًا باديًا ظاهرًا للعِيانِ علىٰ هذا الأمرِ المَعنوي الخطير.

يقول ربنا -جلت قدرته-: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، فأين قراره، وأين مستقره؟

إن قلبَه لا يجدُ مُستقَرَّه بحالٍ أبدًا، وهل تُرىٰ تجد الرجل الذي خرَّ من السماء فتخطفه الطير، أو تَهوي به الريح في مكانٍ سحيق، هل تُرىٰ تَرىٰ الرجل الذي يكون علىٰ هذه الصفة يجد لنفسه مستقرًّا، أو يجد لقَلبه مقرًّا؟

إنما هو ضائعٌ تائهٌ، لا يَلوي علىٰ غَاية، ولا يُيمِّمُ قَصدًا، وإنما هو ممن تتنازعُهم الظنونُ في أودية الأوهَام.

يقول ربنا -جلت قدرته-: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا

﴿تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وبيَّن تعالىٰ أن الشرك محبطٌ للعمل، مخرجٌ من ملة الإسلام؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

وقال -جلت قدرته-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

أوحىٰ الله رب العالمين إلىٰ النبيين، وفي جملتهم وعلىٰ رأسهم محمدٌ الأمين، وقد أعاذهم الله رب العالمين من ذلك، وحاشىٰ وكلا، أن يتورَّطُ واحدٌ من المَعصومين في الشركِ بالله رب العالمين؟ حاشىٰ وكلا.

ولكن هذا ترهيبٌ لمن وراءهم من أتباعهم من أُمَمِهِم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

فإذا كان هذا الكلام يتوجه إلىٰ الأنبياء، وعلىٰ رأس موكبهم الطاهر محمدٌ ﷺ، فكيف بمن دونَهم، فكيف بمَن وراءَهم؟! الأمر جِدٌّ لا هَزلَ فيهِ.

وفِي صَحيح مسلمٍ عن جابرٍ رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ: «**مَن لَقِي اللهَ**

لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَن لَقِيَهُ يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخلَ النَّارَ»[١].

فبيَّن الله رب العالمين أن السبيل المُعبَّد الذي يفضي إلىٰ النار هو هذا الشرك، نسأل الله أن يعيذنا منه ظاهرًا وباطنًا، وأن يبرئنا منه أرواحًا وعقولًا وأفئدة وأبدانًا وألسنة؛ إنه علىٰ كل شيءٍ قدير.

يقول النبيﷺ، كما في صحيح البُخاريِّ من رِوايةِ ابنِ مَسعودٍ: «**مَن مَاتَ وهُو يَدعُو مِن دُونِ اللهِ نِدًّا دَخلَ النَّارَ**»[٢].

يَدعُو مِن دُون الله رب العالمين ندًّا، من مَلَكٍ مُقرَّبٍ، أو رسُولٍ مُرسَل، أو وليٍّ أقيم عليهِ ضريحٌ يُقصَد، فيُطاف به ويُنحَر عندَه، وتُطلب الحاجاتُ منه ممَّا لا يُطلَب إلا مِن الله رب العالمين.

ولو كان ذلك جَائزًا أن يُطلب من الأحياء ممَّا هم قادرونَ عليه، فإنه لا يمكن أن يُطلب من الأموات؛ مِن الرِّمم؛ من الجِيَف التي صَارت عِظامًا رَمِيمًا، لَا تَقوىٰ لنفسها علىٰ نفعٍ ولا ضُرٍّ، فكيف تقوَىٰ علىٰ النفع والضر لغيرها؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٩٧).

أمرٌ عجيب لا يستقيم في عقلٍ سليمٍ أبدًا، ولكن الجُنون فنون -نسأل الله أن يبرئَنا من الشرك ظاهرًا وباطنًا-.

فمن صَرف نَوعًا من أنواعِ العبادة لغير الله؛ فهُو مشركٌ كافرٌ.

فالدعاءُ عبادة أمر الله بها، فمن دعا الله وحده فهو موحدٌ، ومن دعا غير الله فقد أشرك.

قال -جلت قدرته-: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦].

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

فبيَّنَ الله ربُّ العالمين أنه من غير أهل الفلاح، لأنه من الكافرين، لأنه يدعو مع الله رب العالمين غيره.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨-٢٠].

فالعبادة في حقيقتها ينبغي أن تُصرف إلىٰ الله رب العالمين وحده.

والدعاء هو العبادة، كما قال النبي ﷺ.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل:٢٠-٢١].

فالدعاء ينبغي أن يتوجه لله رب العالمين وحده، لا يُدعىٰ إلا الله رب العالمين.

والنبي ﷺ ثبت عنه كما في السنن عن النعمان بن بشير: «**الدعَاءُ هُو العِبادَةُ**»(١).

وأما حديثٌ يُلصق بالنبي ﷺ وليس صحيحًا في النسبة إليه، وهو: «**الدعَاءُ مُخُّ العبَادَةِ**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٠١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، وصححه الألباني في الترغيب (١٦٢٧).

وإنما الذي ثبت عن النبي ﷺ: «**الدُّعاءُ هُو العِبادَةُ**»، وفيه من القصر والحصر ما فيه؛ لأن هذا الضمير الظاهر المنفصل عندما يؤتىٰ به في هذا الموضع يدل علىٰ القصر والحصر، وهو أسلوبٌ في البلاغة معروف.

فهذا التوحيد -توحيدُ الألوهية- هو الذي وقَعَت فيه الخصومةُ بين الرسل وأُمَمهم؛ لأنهم لمَّا دَعوا الأممَ إلىٰ عبادة الله رب العالمين وحدَهُ، وإلىٰ صَرفِ جميع ألوان العبادة لله رب العالمين وَقعت الخصومة.

وهو -أي: هذا التوحيدُ- هو الذي أرسل الله رب العالمين الرسلَ من أجل بيانِهِ والدعوةِ إليه، وأنزل الكُتبَ في تقريره وتَوضيحِهِ والاحتجَاجِ لهُ، كما قال تعَالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ**﴾ [النحل:٣٦].

والطَّاغوتُ: كل مَا يُعبد مِن دُون الله رب العالمين من شَجرٍ، أو حَجرٍ، أو نَجمٍ، أو قمرٍ، أو مَعبود يُعبد ويُطاع ويُحَب من دون الله رب العالمين.

﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء:٢٥]. فما أرسل الله رب العالمين الرسل إلا لهذه الغايةِ.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

من أجل هذا أرسل الله رب العالمين الرسل، ونبأ الله رب العالمين الأنبياء، وأنزل الله رب العالمين الكتبَ.

ومن أجل هذا قامت الخصومة بين أهل الإيمان وأهل الكفران، ومعسكر الإيمان ومعسكر الرحمن ومعسكر الشيطان، من أجل ذلك قامت الخصومة ودقت طبول الحرب، ورفعت رايتها بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال.

وافتتح الرسل بهذه الدعوة إلىٰ توحيد الدعوة إلىٰ توحيد الله رب العالمين، افتتحوا بهذه الدعوة دعوتهم إلىٰ الله رب العالمين وحده.

فكل رسولٍ كان يقول لقومه في أول ما يقول لهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [المؤمنون:٢٣].

وهذا كما قاله نوح وهود وصالح وشعيب، وكل رسولٍ أتىٰ قومه استفتح الدعوة إلىٰ الله رب العالمين بهذه الكلمة وهي الكلمة الطيبة،

الإثبات والنفي، هي (لا إله إلا الله)، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾، تساوي: لا إله إلا الله، ﴿غَيْرُهُ﴾ هذا هو الإثبات في قولك: (إلا الله).

فبهذا النفي والإثبات أرسل الله رب العالمين الرسل، وأنزل الله رب العالمين الكتب، ومن أجله قامت الخصومة بين أهل الحق، وأهل الباطل.

وليس للمشركين مستندٌ في شركهم، لا من عقلٍ صحيح، ولا من نقلٍ عن المرسلين.

قال تعالىٰ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

والمعنىٰ: أنه لا يوجد أنه لا يوجد أحدٌ من المرسلين دعا إلىٰ عبادة آلهةٍ مع الله رب العالمين، بل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم يَدعُون إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له.

ونبَّه الله رب العالمين إلىٰ دليل عقلي يُبطل شركَ المُشرِكين؛ فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤].

فهذا دليلٌ عقليٌّ قاطع علىٰ أن كل من سوىٰ الله فعبادته باطلة؛ إذ لم يخلقوا شيئًا، ولم يكن لهم معاونة لله رب العالمين علىٰ خلق شيء؛ وإنما الله رب العالمين وحده المنفرد بذلك؛ فلِمَ عبادتُهم إذَن؟

هذا دليلٌ عقليٌّ متين.

ثم نفىٰ الله رب العالمين أن يكون للمشركين دليلٌ من النقل عن الكتب المُنزلَة أو الرسل المُرسَلة فيما ذهبُوا إليه من الشرك.

فبان أن لا حجة للمشركين مطلقة، لا من العقل الصريح ولا من النقل الصحيح، فكانوا من الخالدين في نار جهنم، وبئس المصير.

فهذا التوحيد عبادَ اللهِ، هو أهم المهمات، وهو أول الواجبات، وهو أول ما ينبغي أن يُحصِّله المسلم في حياته علمًا، واعتقادًا، وعملًا، وتطبيقًا، وسلوكًا، ومنهاجًا.

ومن قصَّر في تحصيله، فلم يُحصِّلهُ علىٰ وجهه، ومن أتىٰ به ناقصًا وجاء ربه مشركًا، فإن مآله إلىٰ النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

المعتقد الصحيح في أركان الإيمان الستة

من جُملة اعتقاد أهل السنة والجماعة: الإيمانُ باللهِ، وملائكتِه، وكتبِهِ، ورسُلِهِ، والبَعثِ بَعدَ المَوتِ -وهو الإيمانُ باليَومِ الآخر-، والإيمانِ بالقَدَر.

الإيمان بالله

الإيمان بالله -تبارك وتعالىٰ- يشمل: الإيمان بوجوده ﷻ.

والدَّليل علىٰ وجودِ الله ربِّ العالمين: العقلُ، والحِسُّ، والفِطرةُ، والنقلُ.

فلابد قبل أن يؤمِنَ الإنسان بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

أن يُؤمنَ بوجود الرب الذي يُوحَّد في ربوبيته، ويوحَّد في ألوهيته، ويوحَّد في أسمائه وصفاتِهِ.

فالإيمانُ بالله -تبارك وتعالىٰ- يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بوجود الله -تبارك وتعالىٰ- ثابتٌ بالعقل، ثابتٌ بالحِس، ثابتٌ بالفِطرة، ثابتٌ

بالنقل والشرعِ.

ثم بعدمَا يؤمن المرءُ بوجود الله -تبارك وتعالىٰ-: يؤمن بأنه ينبغي أن يَصرِفَ التوحيدَ لوجهِهِ الكريم، بتوحيدِ الربوبيةِ، وتوحيدِ الألوهيَّةِ، وتوحيدِ الأسمَاءِ والصفاتِ، وهذا مرَّ ذِكرُه.

الإيمان بالملائكة

وأما الإيمان بالملائكة: فيكون بالتصديق بوجودهم، وما ذُكر لنا مِن أسمَائهم، وما ذُكر لنا من أعمالهم.

قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقال -جلَّت قدرتُه-: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ الطويل في سؤالِ جبريلَ للنبي ﷺ عن الإيمانِ، قال ﷺ: «**الإِيمَانُ: أَنْ تُؤمِنَ بِاللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ**»(١).

هؤلاء الملائكةُ وصَفَهم الله -تبارك وتعالىٰ- لنا في كتابِهِ؛ فقال -جلت قدرته-: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ

(١) أخرجه مسلم (٨).

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧].

فهُم عبيدٌ لله -تبارك وتعالىٰ-، وخَلقٌ من مَخلوقاته العظيمَة، لا يستحقُّون شَيئًا من العِبادَةِ، يعني: لا يُعبدَونَ؛ وإنمَا هم خَلقٌ من خلق الله رب العالمين، هُم عبَادٌ مُكرَمُون، وليسوا بمَعبودِينَ.

يقول ربُّنا -جلت قدرته-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٨٠].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجَانُّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا قَد**

وُصِفَ لَكُم»[١].

ومِن صِفَةِ خَلقِ المَلائِكَة: أنَّ لَهُم أجنِحَةً.

هم مخلوقون من نُور، ثم هم عبادٌ من عباد الله رب العالمين، ومن خلق الله رب العالمين، لا يستحقُّون شيئًا من العبَادة، وهؤلاءِ في صفة خلقِهم أن لهم أجنحَةً.

فمِنهم من له جناحانِ جناحانِ، ومنهم من له ثلاثةٌ ثلاثةٌ، ومنهم من لهُ أربعةٌ أربعةٌ... وهكذا.

قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: «أن النبيﷺ رَأىٰ جِبريلَ ولَهُ سِتمِائَةِ جَنَاحٍ»[٢].

وقَد أقدَرَهُمُ الله -تبارك وتعالىٰ-، أي: أعطَاهُم القُدرة، علىٰ التشكُّل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

بالأجسام الحَسنةِ، كما تمثَّل جبريلُ لمريمَ بشرًا سويًّا، وكما تمثَّلوا لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- عندما حَلُّوا عليه ضيوفًا مُكرمين، وكما تمثَّلوا للوطٍ عليه السلام عندما جاءوا لإنزالِ العذاب بقَومه، ونحو ذلك.

فالملائكةُ أعطاهم الله القُدرةَ علىٰ أن تتشكلَ بالأجسامِ الحسَنة.

وردَّ الله علىٰ المشركين الذين زعموا أنهم بناتُ الله -تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-، فقال -تعالىٰ وتقدس-: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات:١٤٩-١٥٧].

فردَّ الله ربُّ العالمينَ علىٰ المُشركين الذين زَعموا أن المَلائكة بناتُ

الله، ثُم قال تعالىٰ عن الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٤-١٦٦].

ومن الملائكةِ: جبريلُ عليه السلام، المُوكلُ بالوَحي.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧].

وقَد رآهُ النبي ﷺ في الأبطَحِ له سِتمائةِ جنَاحٍ قد سدَّ عِظَمُ خَلْقِه الأفقَ.

ثم رآهُ ليلة المِعراج أيضًا في السماء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم:١٣-١٥].

ولم يره في صورتِهِ إلا هاتَين المرتين، وأما بقيةُ الأوقات ففِي صورةِ رجلٍ، وغالبًا في صورةِ دِحْيَةَ الكَلْبيِّ، وهو رجُلٌ من أصحَابِ النبي ﷺ كان حسَنَ الصورَةِ جدًّا، وكان جميلَ الطَّلعة بَهيَّها.

قال الله تعالىٰ في جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:١٩-٢٣].

ومنهم: مِيكَائِيلُ، وهو المُوكَّل بالقَطر وتصاريفه إلىٰ حيثُ أمره الله ﷻ.

أخرج الإمام أحمد عن أنسٍ: أن النبيَّ ﷺ قال لجبريلَ: «**مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟**» فقالَ: «**مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنذُ خُلقَتِ النَّارُ**»(١).

وأما نحن فنضحك ما شاء الله -تبارك وتعالىٰ-!

قال اللهُ تعَالىٰ في مِيكائيلَ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

ومنهم: إسرَافيلُ، وهُو المُوكَّل بالصورِ، ينفُخُ فيه ثلاثَ نَفخاتٍ بأمرِ ربِّهِ ﷻ: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين.

هؤلاء الثلاثة من الملائكة هم الذين ذكرهم النبي ﷺ في دعائه من صلاة الليلِ: «**اللهُمَّ رَبَّ جِبرائِيلَ ومِيكائِيلَ وإسرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَواتِ والأَرضِ، عَالِمَ الغَيبِ والشَّهَادَةِ، أَنتَ تَحكُمُ بَينَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ، اهدِنِي لِمَا اُختُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذنِكَ إِنَّكَ تَهدِي مَن تَشَاءُ إِلَىٰ**

(١) أخرجه أحمد (١٢٩٣٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥١١).

صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ»[1]. وهَذَا حَديثٌ صحيحٌ أخرجه الإمام مسلمٌ -رَحمةُ اللهِ عَليهِ-.

ومِنهُم: مَلَكُ المَوت، وهو المُوكَّل بِقبضِ الأروَاحِ.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١].

ومِنهُم: المَلائِكَةُ المُوكَّلُونَ بِحِفظِ بَني آدمَ في كل حَالاتهِ، من حلٍّ وسفر، ونَوم ويقظةٍ.

قال تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١٠-١١].

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ تعَالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾: «مَلائكةٌ

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

يحفظُونه مِن بينِ يَديهِ ومِن خلفِهِ، فإذا جاءَ قدرُهُ خَلَّوا عَنهُ»[١].

ومِنهُم: الكِرامُ الكَاتِبُونَ، وهم الذين يكتبون أعمالَ العِباد مِن خيرٍ وشرٍّ.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وقد أخبر ﷺ أن البيتَ المَعمور في السماءِ يدخُله -وفي رواية: يُصلِّي فيه- كلَّ يومٍ سبعونَ ألف مَلَك، ثم لا يعُودون إلَيه آخرَ مَا عَليهِ.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: أُذن لي أن أُحدث عن ملكٍ علىٰ هيئة ديك - علىٰ صورة ديك-، رجلاه في الأرض السابعة، وعنقه مثنية تحت العرش، يقول: «**سبحانك ما أعظم شانك! فيقول الله -جل وعلا-: لا يعلم ذلك من حلف بي كاذبًا**»[٢].

ملكٌ علىٰ هيئة ديك، رجلاه في الأرض السابعة، وعنقه مثنية تحت

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٧٣٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٨٣٩).

العرش، يقول: سبحانك ما أعظم شانك! هذا ذِكره، ورده، سبحانك ما أعظم شانك -أي: شأنك- سبحانك ما أعظم شانك، فيقول الله -تبارك وتعالىٰ-: لا يعلم ذلك من حلف بي كاذبًا، يعني: من الصعاليك المفاليك في أرض الله -تبارك وتعالىٰ- لا يسوىٰ الواحد منهم وزنه ترابًا، وهذا في عِظم خلقه يقول: سبحانك ما أعظم شانك! يقول: لا يعلم ذلك من حلف بي كاذبًا.

ومَن أنكرَ وجودَ المَلائكة؛ فقَد كفَر بإجماع المسلمين.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

ويقول النبيﷺ: «**أطت السماء وحُق لها أن تئط**»[1]، والأطيط: هو صوت الرحل عندما يُثقل عليه، «**أطت السماء وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضعٌ جبهته ساجدٌ لله رب العالمين**».

الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، منهم من هو موكلٌ بالنبات في

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٢).

الأرض علىٰ كثرة ما يخرج من الأرض من النبات، كل ذلك يوكل الله -تبارك وتعالىٰ- به من الملائكة من يوكل، وربك علىٰ كل شيءٍ قدير.

فهذا الجنس الإنساني هو جنس ما من أجناسٍ كثيرة خلقها الله -تبارك وتعالىٰ-.

ولكن الله -تبارك وتعالىٰ- جعله وسطًا بين قوىٰ الشر المحض في الشياطين، هؤلاء يعصون الله -تبارك وتعالىٰ- ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون، وقوىٰ الخير المحض في الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

الشياطين لا يطيعون الله ما أمرهم، ولا يفعلون ما يؤمرون، وأما الملائكة فإنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وهذا الجنس الإنساني وسط بين هذين، أعطاه الله -تبارك وتعالىٰ- الاختيار، وجعله عاقلًا فاعلًا مختارًا، فيمكن إذا ما أتىٰ بأمور الطاعات والإيمان أن يلتحق بأفق الملائكة المكرمين، ويمكن إذا ما تأبَّىٰ علىٰ أمر الله رب العالمين أن ينحط إلىٰ درك أسفل سافلين مع الشياطين والمجرمين في هذا الاختيار.

لأن الله -تبارك وتعالىٰ- يريدك أن تعود إليه بمَلْكك بذاتك، يريد اختيارك، يريدك أنت، يريد الله رب العالمين من الإنسان أن يعود إليه باختياره، وأن يعبد الله -تبارك وتعالىٰ- لا مجبرًا علىٰ طاعته، ولا مجبولًا علىٰ تلك الطاعة؛ ولذلك فتح له باب التوبة، وجعل له ما جعل من تلك الأمور التي كرمه الله رب العالمين بها، وفضله علىٰ كثيرٍ ممن خلق.

* * *

الإيمان بالكتب

ومن أركان الإيمان: الإيمان بالكتب المنزلة.

والتفت إلىٰ الإيمان بالكتب التفاتًا صحيحًا، فلعل فيها ما لا تعلم.

فإن الله تعالىٰ قد أنزلَ مع كل رسولٍ كتابًا، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

فنؤمنُ بهذه الكتب، ونعلم أنها من عند الله؛ امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦].

فنؤمن بهذه الكتب إجمالًا فيما أُجمل، وتفصيلًا فيما فُصِّل.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى:١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:١-٤].

فنؤمن بالكتب من كلام الله رب العالمين، لا من كلام غيره، وأن الله تعالىٰ تكلم بها حقيقةً.

*** ما معنىٰ أن تؤمن بكتب الله -تبارك وتعالىٰ-؟**

أن نؤمن بأن هذه الكتب من كلام الله -تبارك وتعالىٰ-، لا من كلام

غيره، وأن الله تكلم بها حقيقةً كما شاء علىٰ الوجه الذي أراد.

فمنها: المسموع منه تعالىٰ من وراء حجاب بدون واسطة، كما كلَّم اللهُ موسىٰ تكليمًا بدون واسطة.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فكلمه الله ربُّ العالمين من وراء حجاب بدون واسطة.

وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤].

ومنها: ما يُسمعه اللهُ -تبارك وتعالىٰ- الرسولَ الملكيَّ، ويأمره بتبليغه منه إلىٰ الرسولِ البشري.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

كما أن الإيمانَ بالكتب يتضمنُ: الإيمان بكل ما فيها من الشَّرائع، وأنه كان واجبًا علىٰ الأمَم الذين نَزَلت إليهم، واجبًا عليهم أن ينقادُوا لها، وأن يَحكُموا بما فيها، وأن هذه الكتب يُصدِّق بعضها بعضًا ولا يكذبه، وأن

نَسخَ الكُتب الأولىٰ بعضُهَا بعضًا حقٌّ، كما نُسِخَ بعض شرائع التوراة بِالإنجيلِ.

قال تعالىٰ في عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]، فنَسَخ لهُم بعض ما حُرِّم عَليهم في التورَاةِ.

وكما نَسَخَ القرآنُ ما قَبله من الكُتب السَّماويةِ، قال تعالىٰ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم:٥٢].

والإيمان بكُتب الله يجب أن يكون إجمالًا فيما أُجمل، وتفصيلًا فيما فُصِّل.

فَصَّلَ الله تعالىٰ أسماءَ بعض كتبه؛ فسمىٰ الله التوراةَ التي أنزِلَت علىٰ مُوسىٰ، والإنجيلِ الذي أنزل علىٰ عيسىٰ، والزبُور الذي أنزل علىٰ داودَ، والقرآن الذي أنزل علىٰ محمدﷺ، وذكر الله تعالىٰ صحفَ إبراهيم وموسىٰ -عليهم جميعًا الصلاة والسلام-.

فنؤمنُ بهذه الكُتبِ علىٰ هذا التفصيل: التوراة، والإنجيل، والزَّبور، والقرآن، ونؤمن بصحف إبراهيم وموسىٰ.

كما أن الله ذَكَر كتبًا كثيرةً إجمالًا لَم يُسمِّ مِنها شيئًا، فنُؤمنُ بِها أيضًا علىٰ هذا الإجمال، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى:١٤].

والقُرآن الكريمُ الذي أنزل الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ نبينَا محمد ﷺ هو آخر الكتب السمَاوية؛ فلا كتابَ بعده، وهو ناسخٌ لجميع الكُتب المتقدمَةِ.

عامٌّ للثَّقلين للإنسِ والجِن؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم:٥٢].

والقرآن شاملٌ لجميع ما يحتَاجُه الناس في دِينهم ودُنياهم؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣].

والقرآن مُعجزٌ لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثل أقصر سورة فيه؛ قال

تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢].

محفوظٌ من الزيادَةِ والنقصَانِ؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

فنؤمن بالكتب إجمالًا فيما أُجمِلَ، وتفصيلًا فيما فُصِّلَ.

ونؤمنُ بأنَّ آخرَ كُتب الله -تبارك وتعالىٰ- إلىٰ أهل الأرض: هو القرآن العظيم.

وأن القرآنَ معجزٌ بلَفظه، وبالتالي فهو مُعجزٌ بمَعناه.

وأن البشرَ لو تظاهَرُوا مع الجن فكانوا سواءً سواء علىٰ أن يأتوا بمثل أقصَر سورة فيه ما استطاعوا إلىٰ ذلك خُلوصًا، ولا استطاعوا إليه سبيلًا.

وليس الأمر مبنيًّا علىٰ الصَّرْفَة كما يقول كثيرٌ من الجَهَلة، بمعنىٰ أن

الله -تبارك وتعالىٰ- صَرَف الناس، أو صَرَف الثقلين -الإنس والجن- عن المعارضة، يعني: مع قدرتِهم عليها، فقالوا بما يُسمَّىٰ بالصَّرْفَةِ.

وليس الأمر كذلك، بل إن الله -تبارك وتعالىٰ- لما أنزل القرآن العظيم كان القرآن العظيم هو كمَا دلَّنا ربُّنا -تبارك وتعالىٰ- صفة من صفات الله رب العالمين، والله رب العالمين لا يمكن أن تشبه ذاتَه ذاتٌ، ولا يمكن بالتالي أن تشبه صفاتِهِ صفاتٌ.

وعَليه؛ فهذا الأمر كما ترىٰ لا يمكن أن يتحقق منه شيءٌ لإنس ولا جِن، بل هو القرآن العظيم، كلام الله رب العالمين، وكلام الله رب العالمين صفةٌ من صفات الله رب العالمين، كما لا يمكن أن تُشبه ذاتُ الله -تبارك وتعالىٰ- ذاتَ أحدٍ من المخلوقين، فكذلك لا يمكن أن تشبه صفةُ الله -تبارك وتعالىٰ- صفةَ أحدٍ قط.

فمَهما تظاهر الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فإنهم لا يستطيعون، بل ولا بمثل أقصَر سُورة منه.

فالقرآن العظيمُ مُعجِزٌ، تحدَّىٰ الله رب العالمين به الخَلائق إنسًا وجنًّا أن يأتُوا بمثله، فلما عجزوا تحدَّاهم أن يأتوا بمثل عَشر سور، فلما عَجزوا

تحدَّاهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة فيه.

وكان المشركون أصحاب ذَوقٍ بياني رفيع، وكانوا يعلمون أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام محمدﷺ.

كانوا يعلمون أن النبيﷺ ما كان ليدَعَ -أي: ليترك- الكذب علىٰ الناس، ثم يذهب بعد ذلك ليكذب علىٰ رب الناس، كانوا يعلمون أن النبيﷺ صادقٌ فيما بلَّغ عن ربه.

بل كان بعضهم يذهب من وراء ظهر بعضٍ؛ ليسمع تلاوة النبي ﷺ القرآن بالليل؛ لأن القرآن كان يأخذ بألبابهم يعلمون أنه لا يمكن أن يكون من كلام بشر، فكانوا يوقنُون بأن القرآن من عند الله -تبارك وتعالىٰ-.

قال ربنا -جلَّت قدرتُه-: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٣]، فهم يعلمون أن الرسالة علىٰ وجهها مع النبيﷺ.

وهذا ابن أخت أبي جهلٍ يقول له: يا خَال، أمحمدٌ كاذبٌ فيما أتىٰ به؟

قال: هذا رجلٌ كنا ندعوه قبل أن يأتي بما أتىٰ به بالصادق الأمين،

وما كان ليدَع الكذب علىٰ الناس ويكذب علىٰ رب الناس.

فقال له: يا خال، فلما لا تتبعه؟

قال: يا بنَ أُختي، نحن وبنو عبد منافٍ كُنَّا كفَرَسي رِهان، تصدقوا فتصدقنا، وأعطوا فأعطينا، وفَكَّوا الرقاب ففككنا، حتىٰ إذا تحاذت الرُّكب -يعني: كما يكون الفارسان متحاذِيَينِ علىٰ فرسيهما في حلبة السباق، فلا سابقَ ولا مَسبوق-، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فأنَّىٰ ندركُ مثلَ هذه؟!

فكان يعلم أنه لا يمكن أن يستقيمَ في عقل أحدٍ يعرفه أو يسمع عنه أن يقول: إنه نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، وأمَّا محمدٌ ﷺ فقد هيأهُ الله رب العالمين للرسالة، فكان بعيدًا عن كل ما يمكن أن يَشين ظاهرًا وباطنًا.

وأما هؤلاء الذين خلَّطوا، فلو ادَّعوا الرسالة ما صدقهم أحد قط، هم أنفسهم يعلمون ذلك من أنفسهم.

يقول له: حتىٰ إذا تحاذت الركب، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فأنَّىٰ ندرك مثل هذه!

فهو يعلم أنه صادقٌ، وأن القرآن العظيم كلام الله، ما كان القرآن العظيم يشتبه عليهم في حسِّهم أنه من كلام نبينا محمدﷺ، بل إن الفارق كان

واضحًا جدًّا في ضميرهم، وفي خَلَدِهم، وفي حِسِّهم.

ولكن كما قال ربنا -جلَّت قُدرتُه-: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

فجَحدوا بِهذه الرسالةِ العظيمة، وحسَدُوا مُحمدًا ﷺ، وتحركوا بهذا الحسد والحقد؛ فصاروا إلىٰ ما صاروا إليه.

ومعلومٌ أن الحسدَ هو أول ذنبٍ عُصي به الله في السماء، وهو أول ذنب عُصي به الله -تبارك وتعالىٰ- في الأرض؛ فلما عصىٰ إبليسُ آدم، عندما أمر الله رب العالمين الملائكة أن تسجد له، فكان ما كان من عصيانه وإبائه علىٰ ربه -جل وعلا- أن يسجد كما أمره، وكذلك لما حسد الأخ أخاه من أجل امرأة فقتله.

فكان الحسد أول ذنب عُصي به الله في السماء، وهو أول ذنبٍ عُصي به الله -تبارك وتعالىٰ- في الأرض.

وإذا خالط هذا الداءُ الدَّوِيُّ قلبًا فإنه لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يفلح أبدًا، إلا أن يشاء ربي شيئًا بأن ينزعه منه وأن يستَلَّه من قرارَتِهِ.

ولا يكون ذلك إلا بأمر الله رب العالمين وحده، فإنه مُهلكٌ جدًّا، وإنه لمُكدر لصفو الحياة حقًّا، وهو الذي يقلب هذه السعادة التي يمكن أن يحيا فيها الإنسان بعطاء ربه أن يجعلها علىٰ الضد منها، فيجعلها تعاسة وواقعًا مريرًا.

وهذه الكتب من كلام الله -تبارك وتعالىٰ-، لا من كلام غيره، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- تكلم بها حقيقة كما شاء علىٰ الوجه الذي أراد.

وآخر هذه الكتب، والمهيمن عليها، والناسخ لما فيها: هو كتاب الله رب العالمين، الخاتم القرآن، المنزل علىٰ قلب محمدﷺ.

هذه المعجزة هي أكبر المعجزات التي أتاها الله رب العالمين الأنبياء جميعًا، فهل هذا معلومٌ لديك بحقيقته يقينًا في قلبك؟

يعني: عيسىٰ عليه السلام كان يمكن أن يخاطب الأموات فيحييهم الله -تبارك وتعالىٰ- له، ويخاطبونه.

موسىٰ عليه السلام ضرب البحرَ بعصاه فانفلق فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم، وجعل الله بين هذين طريقًا يَبَسًا، ونجَّاه الله رب العالمين ونجىٰ بني إسرائيل.

وأخرج يده في جيبه، والجيب هو فتحة الثوب التي يدخل العبد أو

الإنسان منها رأسه، فأدخل يده في جيبه، وكان آدمًا، يعني: يميل إلىٰ السُّمرة، فخرجت بيضاء من غير سوء بيضاء، ومن غير سوء حتىٰ لا يكون ما بها من المرض، كالبرص، أو البهاق، أو ما أشبه، فلا يكون آية، إنما أدخل يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء للناظرين.

آيات أجراها الله -تبارك وتعالىٰ- للأنبياء.

لمَّا أَنْ قضىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- أن يلقىٰ إبراهيم في النار نجاه الله -تبارك وتعالىٰ- وجعل النار بردًا وسلامًا عليه، آيات للأنبياء.

الآية التي أعطاها الله ربُّ العالمين نبيَّنا محمدًا ﷺ أكبر من هذا كلِّه، فهل في خاطرك أنت أيها المسلم الموحد الذي يؤمن بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، أن القرآن أكبر إعجازًا، وأجلىٰ دلالة، وأعلىٰ كعبًا من إحياء الموتىٰ؟

لو أن القرآن بيمينك، وأن عيسىٰ عليه السلام يقول لميتٍ: قم؛ فيقوم بإذن الله رب العالمين، أو يخاطبه فيرد عليه، أو يَخرج الماء عن طبيعته، أو النار تخرج عن قانونها.

هل تشاهد هذا والقرآن أمامك منشور بصفائحه وصحائفه، هل

يمكن لك أنت أن تقول: هذا أعلىٰ إعجازًا وأقوىٰ دلالةً من هذه الأمور المادية التي أجراها الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ أيدي الأنبياء والمرسلين السابقين علىٰ نبينا الأمينﷺ؟ هم كذلك ولكن من يحس ذلك؟

القرآن أكثر إعجازًا، وقد آتىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- نبينا محمدًاﷺ مع القرآن من الآيات البينات مثل ما آتىٰ جميع الأنبياء من قبل.

حتىٰ إن العلماء ليقولون: إن الله -تبارك وتعالىٰ- أكرم النبيﷺ بما فوق الألف من المعجزات، وما من معجزة أتاها الله -تبارك وتعالىٰ- نبيًّا من الأنبياء السابقين إلا وآتىٰ النبي محمدًاﷺ أعلىٰ منها.

فإذا كان الله -تبارك وتعالىٰ- قد فلق البحر لموسىٰ، فإن الله -تبارك وتعالىٰ- جعل هذه الأرض، والآية التي فيها آية أرضية، جعل الآية آية أرضية مائية، هي موجودة في هذا الكون الذي نحيا فيه ونباشره ونتحرك عليه، وأما الآية السماوية فقد فلق الله رب العالمين لمحمدٍﷺ القمر، فكان فِرقتين، والجبل بينهما، فهذه الآية السماوية أعظم من هذه الآية المائية الأرضية.

إذا كان موسىٰ عليه السلام قد ضرب الحجر بعصاه فانبجست منه اثنتىٰ

عشرة عينًا، فإن الله -تبارك وتعالىٰ- جعل الحجر مظنة أن يخرج منه الماء، فهذه أمورٌ تحدث علىٰ هذا المحيط البسيط الممدود الذي نحيا عليه، وأما أن يخرج الماء من اللحم الحي، فهذا أكبر؛ فقد أخرج الله رب العالمين الماء نابعًا من بين أصابع نبينا محمدﷺ.

فهذه الأمور ينبغي علىٰ المرء أن يكون محققًا لها، لا أن يكون عالمًا بها علمًا نظريًّا.

هل وصل إعجاز كتاب الله -تبارك وتعالىٰ- في نفسك فوق الإعجاز الذي كان للأنبياء السابقين في معجزاتهم وآياتهم؟

هل هو عندك هذا القرآن العظيم الذي لا يحسن أن يتلوه كثيرٌ جدًّا من جماهير المسلمين، فضلًا عن أن يتدبروا آياته، وأن يتفهموا معانيه، وأن يصلوا إلىٰ مراميه، فضلًا عن أن يعملوا بما فيه.

هذه الجماهير من جماهير المسلمين هل تؤمن حقيقةً بأن القرآن العظيم هو أكبر معجزة آتاها الله رب العالمين نبيًّا من الأنبياء علىٰ مدار تاريخ النبوة إلىٰ محمدٍﷺ؟

إذا لم يكن ذلك مستقرًّا في خَلَدك وفي ضميرك، وأنت منه علىٰ يقين،

فعليك أن تراجع إيمانك، راجع إيمانك فإن في الإيمان شيئًا.

❊ ❊ ❊

الإيمان بالرسل

والإيمان بالرسل: ويكونُ بالتصديقِ الجازم بأن الله قد بعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، والكُفر بما يُعبد من دُونه.

وأن جميعهم -أي: جميعَ الأنبياءِ والمُرسلين- صادقون مُصدَّقون بارُّون راشدون كرامٌ بررة، أتقياء أمناء هُداة مهتدون، وأنهم بلغوا رسالات الله جميعًا.

وأن الله اتخذ إبراهيم خليلًا، واتخذ محمدًا ﷺ خليلًا، قال: «**فصَاحِبُكُم خَليلُ اللهِ**»(١).

وكلَّم الله موسىٰ تكليمًا، ورفع إدريس مكانًا عليًّا.

وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه.

ونؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- فضَّل بعضهم علىٰ بعض، ورفع بعضهم علىٰ بعضٍ درجات، وأن محمدًا ﷺ سيدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

يقول ﷺ: «**أَنَا سَيدُ وَلَدِ آدَمَ يَومَ القِيامَةِ ولَا فَخرَ**»(١).

لماذا قال: يوم القيامة، وهو سيدهم دنيا وآخرة؟

لأن يوم القيامة تنقطع الدعاوىٰ، وأما في الدنيا، فقد وُجد في الدنيا من يقول: أنا ربكم الأعلىٰ، ووجد في الدنيا من يقول: ما علمت لكم من إله غيري، وأما في الآخرة فتنقطع الدعاوىٰ، ولا يوجد إلا الصدق الحق، وذلك لمحمد ﷺ.

ومعلومٌ أن الناس في الموقف عندما تدنو منهم الشمس، حتىٰ تصير علىٰ مقدار ميلٍ، هل هو الميل المسافي الذي يكون في الأرض بمسافة معلومة، أو هو ميل الجراحة الذي يُسبَر به عمق الجُرح، أو الميل الذي يكون في المِكحَلَة، يخرج به الكحل، من أجل أن يكتحل به المرءُ؟ هل هو هذا أو هذا أو هذا؟

لا يضر، قريبٌ من قريب، تدنو الشمس من الرءوس والناسُ في العَرَق علىٰ حَسب الأعمال.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٨).
وأخرجه مسلم (٢٢٧٨) دون قوله: «**ولا فخر**».

فمنهم من عرقه إلىٰ كعبيه، ومنهم من عرقه إلىٰ ركبتيه، ومنهم من عرقه إلىٰ حِقْويه، يعني: إلىٰ وسطه، ومنهم من عرقه إلىٰ كتفيه، ومنهم من عرقه إلىٰ أذنيه، ومنهم من يجلمه العرق إلجامًا.

والناس في كربٍ شديد حتىٰ إنهم ليقولون: من هاهنا ولو إلىٰ النار!

وتتفتق الحيلة في ذلك الموقف فيقولون: اذهبوا إلىٰ فلانٍ، إلىٰ فلانٍ، إلىٰ فلانٍ من الأنبياء، وكلٌّ يحيل، وكلٌّ يقول: نفسي نفسي، إلا محمد فيقول: أنا لها أنا لهاﷺ.

يسجد عند ساق العرش، يحمد الله -تبارك وتعالىٰ- بمحامد، يقول: لا أعلمها الآن، يعلمنيها ربي -تبارك وتعالىٰ- حينئذٍ، فيثني علىٰ ربه -تبارك وتعالىٰ- بما يفتح الله عليه، حتىٰ يقول له ربه: يا محمد، ارفع رأسك، وسَلْ تُعطىٰ، واشفع تُشفَّع.

فيطلب من ربه -جل وعلا- أن يبدأ في فصل القضية، الشفاعة العظمىٰ لنبينا محمدﷺ.

نؤمن أن دعوةَ الأنبياء، وأن دعوةَ المُرسَلين من أولهم إلىٰ آخِرِهم واحدةٌ في أصل الدين، كلهم كان يقول لمن أُرسل إليهم: قولوا: لا إله إلا الله، كل

الأنبياء وكل المرسلين إنما جاءوا بالإسلام، جاءوا بدين الإسلام.

لا دين عند الله -تبارك وتعالىٰ- سوىٰ الإسلام، ليس هنالك عند الله -تبارك وتعالىٰ- ديانة تسمَّىٰ الديانَة اليهودية، ولا الديانةُ النصرانية، ولا غير ذلك.

الديانةُ عند الله -تبارك وتعالىٰ- منذ نبأ الله الأنبياء، وأرسل الله المرسلين هي الإسلام، الإسلام في أصوله العامة، بمعنىٰ توحيد الله -تبارك وتعالىٰ-.

وأما الشرائعُ فكانت تختلف، الشرائع بمعنىٰ ما يفرضه الله رب العالمين علىٰ الأمم من الأحكام، فهذه كانت تتناسب مع كل أمة، في كل عصر، في كل زمان، حتىٰ جاء محمدﷺ.

وجاء النبيﷺ علىٰ موعدٍ من انديَاحِ الزمان في الزمان، والمكان في المكان، بمعنىٰ أنه لم تعد حدودٌ ولا فواصل بين الناس في الأرض، وإنما صار العالم كله كالقرية الواحدة.

فجاء النبي ﷺ بشريعة واحدة لجميع البشر في جميع الأرض، بل للإنس والجن ﷺ.

يقولُ ربُّنا -تبارك وتعالىٰ-: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

ويقول عن نُوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢].

ويقول عن مُوسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، هذا موسىٰ يقول ذلك لبَني إسرائيل.

وقال تعالىٰ عن سليمان علىٰ لسان بَلْقِيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤].

الإسلام الذي جاء به جميع الأنبياء، وجاء به محمد ﷺ.

وقال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣].

عدد الرسلِ ثلاثمائة وخمسة عشر رسُولًا، وعدد الأنبياء مائة ألفٍ

وأربعة وعشرون ألفًا، ثبت ذلك في الأحاديث عن رسول الله ﷺ من حديث أبي أمامة، ومن حديث أبي ذر، وفي بعض ذلك مراجعةٌ صحةً وضعفًا.

*** الفرقَ بينَ الرسولِ والنبيِّ مَا هو؟**

النبي هو الذي ينبِّئُهُ الله -تبارك وتعالىٰ-، وهو ينبئ بما أنبأ الله -تبارك وتعالىٰ- بهِ.

فإن أرسل مع ذلك إلىٰ مَن خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه؛ فهو رسول.

وأما من كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يُرسل هو إلىٰ أحدٍ يبلغه عن الله رسالة فهو نبيٌّ وليس برسول.

النبي؛ وحَدُّه: الذي يُكلَّم وينزَّل عليه، ولا يُرسل، وعليه فإن كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كل نبيٍّ رسُولًا.

قد سمىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- لنا منهم جملة: كآدم، ونوح، وإدريس، وهود، وصالحٍ، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، ولوطٍ، وشعيبٍ، ويونس، وموسىٰ، وهارون، وإلياس، وزكريا، ويحيىٰ، واليسع، وذي الكفل، وداود، وسليمان، وأيوب، وذكر الأسباط جملةً،

وعيسىٰ، ومحمدٍ -صلىٰ الله عليه وعليهم وسلم أجمعين-.

وقصَّ علينا من نبَئِهم وأخبارِهم ما فيه كفاية وعبرة وعظة: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

فنؤمن بجميعهم تفصيلًا فيما فصَّل الله، وإجمالًا فيما أجمَلَ اللهُ.

ونؤمن بأن جميع الرسل والأنبياء بشرٌ مخلوقون ليس لهم من خصائص الألوهية شيءٌ.

فالذين عَبدوا بعضَ الرسلَ من دون الله -تبارك وتعالىٰ-، هؤلاء إنما أَتَوْا بشيءٍ إِدٍّ، وأَتَوا بالكذِب المَحض، ولم يأمرهم رسلهم بذلك، بل أخبروهم أنهم عبادٌ من عباد الله رب العالمين.

فنؤمن بأنهم عبيدٌ من عباد الله، أكرمهم الله بالرسالة، ووصفهم بالعبودية في أعلىٰ مقاماتهم وفي سياق الثنايا عليهم -صلىٰ الله عليهم وعلىٰ نبينا محمد صلاة وسلامًا دائمين متلازمين إلىٰ يوم الدين-.

نؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- ختم الرسالات برسالة محمدٍ -عليه

الصلاة والسلام-، فأرسله إلىٰ جميع الثقلين، أرسله إلىٰ الإنس والجن.

وأخبر الله -تبارك وتعالىٰ- أنه أخذ العهد علىٰ النبيين إن أدركوا زمن محمدٍ ﷺ أن يتَّبعوه.

وفي هذا دليل واضح علىٰ أن رسالته ﷺ خاتمة الرسالات، وأنَّها ناسخةٌ لكل رسالةٍ مَضَت: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

وبشَّر الرسلُ -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- برسالة محمد ﷺ.

كان كلُّ رسولٍ يُوصي أمَّته إذا ظهر محمدٌ فاتَّبعُوه ﷺ.

والنبيُّ ﷺ أخبر أنه من لَم يؤمِن بهِ من بعد بَعثته، ثم ماتَ لا يؤمن به فإنه لابد حتمًا يدخلُ النارِ.

قال النبيُّ ﷺ: «**والذِي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هذِهِ الأمَّةِ يَهُودِي ولَا نَصرَانِي ثُمَّ يَمُوتُ ولَم يُؤمِن بِالذِي أُرسِلتُ بِهِ إلَّا كَانَ مِن**

أصحَابِ النَّارِ»[1]. وهذَا فِي صَحيحِ مُسلِمٍ.

فمَن كذَّب برسَالَةِ مُحمَّدٍ ﷺ إلَىٰ الناسِ جَميعًا؛ فقَد كفَر بجميع الرسل حتىٰ برسولِه الذي أُرسل إليه.

يقول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، هل كان هنالك مرسلٌ قبل نُوح؟

نوحٌ هو أول الرسل باتفاق، فعندما يقول لنا ربنا -تبارك وتعالىٰ- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ماذا يعني هذا؟

قوم نوح لم يُرسل إليهم إلا نبيُّهم نوح، ولم يكن قبل نوح من مرسلٍ أرسله الله رب العالمين إلىٰ البشرية، فكيف يقول لنا ربنا -تبارك وتعالىٰ-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهم إنما كذبوا نوحًا وحده؟

يقول العلماء: جعلهم الله -تبارك وتعالىٰ- مُكذِّبين لجميع الرسل مع أنه لم يَسبق نوحًا رسولٌ، لماذا؟

لأنه من كذَّب برسولٍ من رسل الله -تبارك وتعالىٰ-؛ فقد كذب

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

بجميع رسل الله رب العالمين.

نؤمن بأن لا نبي بعد محمدٍ ﷺ؛ فمن ادعىٰ بعده النبوة كفر: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

قال النبي ﷺ في بيان شيءٍ من خصائصه: «**فُضِّلتُ عَلَىٰ الأنبِيَاءِ بِستٍّ: أُعطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**»(١).

فكانَ يتكلم بالكلمات القصيرات في مبناها التي لا حصر لها في معناها، من حيث الشمولُ والاتساعُ والدَّلالةُ.

يقول النبي ﷺ: «**الخَيلُ مَعقودٌ بنَواصِيهَا الخَيرُ**»(٢).

يقول النبي ﷺ: «**إنَّمَا الأعمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(٣).

في هذه الجمل القصيرة تجد من المعاني ما لا يستطيع علماء الأرض ولو توفروا علىٰ ذلك أن يوفوه حقه من الشرح والبيان.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

«**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بِالرُّعبِ، وَأُحِلَّت لِيَ الغَنَائِمُ، وجُعِلَتْ لِيَ الأَرضُ مَسجِدًا وَطَهُورًا، وأُرسِلْتُ إِلَىٰ الخَلقِ كَافَّةً وخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»(١).

مَن كذَّب برسالة أحدٍ من الأنبياء والمُرسلين؛ فقَد كفَرَ بإجماع المُسلمين.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٥-١٥٢].

فنؤمنُ بجميع رسل الله رب العالمين، ولا نفرق بين أحدٍ منهم، والنبي ﷺ تواضعًا كان يقولُ: «**مَا يَنبَغِي لِعَبدٍ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ أن يقُولَ: إنِّي أفضَلُ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّىٰ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (٢٣٧٧)، ولفظه: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من**

وهو أفضل منه، ولكنه ﷺ كان يغلق الباب علىٰ الناس أن يتفاضلوا بالأنبياء، فيقعوا في المَحذور.

ولكن من تمَام إيمان العَبدِ، بل من ركائِزِ إيمانِ العبد المُسلمِ: أن يعلم أن محمدًا ﷺ هو سيد ولد آدم ولا فخر، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- آتىٰ محمدًا ﷺ ما لم يؤت أحدًا من العَالمين.

فآتاهُ الله ربُّ العالمين من المَقام المحمود، وهو الشفاعةُ العُظمىٰ في ذلك الموقف العصيب الرَّهيب.

وآتىٰ الله رب العالمين محمدًا ﷺ من الآيات البينات في كتابه العظيم ما لم يُنزَّل من قبل علىٰ أحدٍ من الأنبياء والمرسلين.

فالنبي ﷺ خليل رب العالمين، وهو سيد ولد آدم، وهو المقدَّم عند ربه -جل وعلا-؛ فصلىٰ الله وسلم وبارك عليه.

* * *

=

يونس بن متىٰ».

الإيمان باليوم الآخر

ومن أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وما يجري فيه من أمورٍ وأهوال، فيوقن أهل السنة بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥].

ويدخل في الإيمان باليوم الآخِرِ: الإيمان بالبعث، وهو إحياء الموتىٰ.

قال ربنا -جلَّت قدرته-: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

وقال تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

فالله -تبارك وتعالىٰ- يُحيي المَوتىٰ، ويَبعثُ الخَلائقَ للفصلِ بينَهم

يوم القيامة.

وممَّا يدخل في الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بصحائف الأعمال، تُعطَىٰ باليمين أو من ورَاء الظهور بالشمَالِ.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:١٩-٢٤].

فأقوام من أهل السعادة يُؤتَون كتبَهُم بأيمانهم، ويصدر هذا الهتاف في عَرَصات القيامة فيه من الفرح ما فيه، وفيه من الاستبشار بالنجاة ما فيه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٢٥-٣٧].

فصحائف الأعمال يوم القيامة يؤتاها الخلق، فآخذٌ بيمينه من أمام، وآخذٌ بشماله من وراء ظهره، فهؤلاء أهل الفلاح، وهؤلاء أهل الطلاح، هؤلاء هم الناجون، وأولئك هم الخاسرون.

ونؤمن بالموازين تُوضع يومَ القيامة؛ فلا تظلم نفسٌ شيئًا.

قال ربنا -جلت قدرته-: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢].

فنؤمن بالميزان يُنصب له كِفتان ولسان، ثم إن المثاقيل هناك كأمثالِ الذَّرِّ الدقيقِ، فمَا من غائبة تضيعُ حينئذٍ، ويوفَّىٰ الناس أعمالهم علىٰ حسب ما قدموا من خيرٍ وشر.

نؤمن بِوضع الموازين القِسط بالعَدل والحق يوم القيامة، فلا تبقىٰ مسألَة من المسائل العَالقةِ إلا ويُفْصَل فيها يومئذٍ، ويوفَّىٰ الناس أجورهم علىٰ حسب أعمالهم، وما قدمت أيديهم جزاء وِفاقًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

نؤمن بالموازين توضع يوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئًا.

ونؤمن بالشفاعة في ذلك الموقف، وهي أنواع:

الشفاعة العظمىٰ: وهي خاصة بنبينا محمد ﷺ، وذلك حين يشفع في أهل الموقف ليقضىٰ بينهم، وليبدأ الله -تبارك وتعالىٰ- في فصل القضية من أجل أن يخرج الناس من كرب الموقف، ومن أجل أن تتحدد المصائر، ومن أجل أن يصير أهل النار إلىٰ النار، وأهل الجنة إلىٰ الجنة، وهذه الشفاعة العظمىٰ هي المقام المحمود، وليست لأحدٍ سوىٰ نبينا محمد ﷺ.

والشفاعة في استفتاح باب الجنة، وهي خاصة بالرسول ﷺ؛ فهو أول آخذٍ بِحِلَقِ الجنة حتىٰ يكون أول داخلٍ لها؛ فالنبي ﷺ يَستفتح بابَ الجنة؛ فيقال له: من؟ فيقول: محمدﷺ، فيقال له: بك أُمرت ألا أبدأ بأحدٍ قبلك، فهذه شفاعةٌ أيضًا.

والشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، وهذه أيضًا خاصة بالنبي محمد ﷺ، يشفع في عمه أبي طالب وقد مات كافرًا فهو في النار خالدًا، ومع فإن الله -تبارك وتعالىٰ- يقبل فيه شفاعة نبينا محمدٍ ﷺ بتخفيف العذاب
لا بالخروج من النار، ولا بالانعتاق من العذاب جُملة، وإنما يخفف الله -تبارك وتعالىٰ- عنه العذاب في النار فهو في ضَحضاحٍ من النار، بأَخْمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه، يحسب أنه أشد أهل النار عذابًا، وهو

أهون أهل النار عذابًا.

فهذا أيضًا لونٌ خاصٌّ من شفاعات نبينا محمدﷺ ليست لأحدٍ سواه.

وهذه الشفاعة في أبي طالب إنما كانت لأن الله -تبارك وتعالىٰ- قضىٰ وقدر أنه حاط الدعوة بالرعاية، وأنه كان يغضب للنبي ﷺ ولا يُسْلمه، بل كان يكون مع النبي ﷺ في مواقف يتأخر عنها أشداء الرجال، ولكنه كان يكون مع النبي ﷺ يحوطه بالرعاية ويدافع عنه ﷺ.

وقدر الله -تبارك وتعالىٰ- ألا يؤمن، وألا يؤمن الصناديد من قوم نبينا محمدﷺ، ولا من قرابته، ولا من عشيرته، حتىٰ لا يقال: إن العصبية لمحمدٍ كانت سببًا في نصرة دين محمد.

وإنما نصر الله رب العالمين هذا الدين بالمستضعفين من غير أصحاب الأحساب والأنساب حتىٰ يقال: إن العصبية لدين محمد نصرت محمدًاﷺ، ولا تُعكس القضية.

وأما لو كانت عصبية قبلية بالنسب، والحسب، والعرق، والرحم، ثم قاموا ينصرون النبي ﷺ لقيل بعدُ: إن العصبية لمحمدٍﷺ كانت سببًا لنصر دين محمد، كلا؛ وإنما كانت العصبية لدين محمدﷺ سببًا في نصر محمد

ﷺ.

الشفاعة في رفع درجات أقوامٍ من أهل الجنة، وهذه ليست خاصة بالنبي ﷺ، وقيل: خاصة به ﷺ.

والشفاعة في أهل الكبائر، وهم العصاة من الموحدين الذين دخلوا النار بذنوبهم لكي يخرجوا منها، يشفع في ذلك رسول الله ﷺ وغيره من المرسلين، والملائكة، والصالحين، والشهداء.

والقرآن والصيام يشفعان لأصحابهما يوم القيامة، وكذا أولاد المؤمنين شفعاء لآبائهم، والمرأة تموت في نفاسها يأتي وليدها يوم القيامة يجرها بسَرَره -يعني: بحبله السُّري- حتىٰ يدخلها الجنة، كما أخبر النبي ﷺ.

وأولاد المؤمنين الذين ماتوا قبل أن يبلغوا الحُلم هم أيضًا فَرَطٌ، والفرط: جمع فارطٍ، وهو الذي يسبق القوم السفر، من أجل أن يهيئ لهم المكان، ويعد لهم الماء والظل الظليل، فهذا يسبق من أجل الإعداد، فيجدونهم وقوفًا علىٰ باب الجنة، فيأخذون بأيديهم إلىٰ الجنة، فيشفعون لآبائهم.

فنؤمن بهذا كله، نؤمن بالشفاعة، بجميع أنواعها، ما كان خاصًّا بالنبي

ﷺ، وما كان غير خاص به ﷺ، كل ذلك يكون في اليوم الآخر.

نؤمن بالحوض، والإيمان بالحوض -حوض نبينا محمدﷺ-، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، وأطيب من رائحة المسك، من شَرِب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا.

وقد بيَّن لنا نبينا ﷺ أن حوضه حوض مربع، وأن عليه كِيزان، والكوز هو كل إناءٍ له عروة، وأن السَّقَّاء علىٰ ذلك الحوض لمن أسعده الله -تبارك وتعالىٰ- بالشرب منه هو نبينا محمدﷺ.

فالنبي ﷺ هو يسقي بيده الشريفة الشربة الهنيئة المريئة التي يقدر الله -تبارك وتعالىٰ- شُربَها لأهل السعادة، نسأل الله أن نكون منهم؛ إنه علىٰ كل شيءٍ قدير.

النبي ﷺ يقف علىٰ حوضه ويسقي بيده.

ولكل نبيٍّ في القيامة حوض، وأكبر تلك الأحواض هو حوض نبينا محمدﷺ.

نؤمن بالحوض، ونؤمن بتفاصيل ما جاء فيه.

ونؤمن بالصراط المنصوب علىٰ متن جهنم؛ أي: علىٰ ظهرها، صراطٌ مضروبٌ علىٰ ظهر جهنم علىٰ متن جهنم، والنار من تحت ذلك الصراط.

هذا الصراط أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف، هذا الصراط مضروبٌ علىٰ ظهر جهنم النار من تحته.

وكلٌّ لابد من أن يجوز هذا الصراط لكي يصل إلىٰ القنطرة، وهي طرف الصراط مما يلي الجنة، ثم بعد ذلك الجنة -نسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يبلغناها في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة-.

فلابد من المرور علىٰ الصراط، وهذا هو الذي فسر به العلماء قول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢].

فهذا هو الورود، وإن منكم إلا واردها، أن يمرَّ علىٰ الصراط حتىٰ ولو كان من أهل السعادة الذين لا يُحاسَبون ولا يُعذَّبون، لابد من المرور علىٰ الصراط.

والمرور علىٰ الصراط يكون علىٰ قدر الأعمال، وتكون الأنوار علىٰ

قدر تلك الأعمال في المارّ علىٰ الصراط:

ومنهم: من يمر كالبرق الخاطف.

ومنهم: من يمرّ كالريح العاصف.

ومنهم: من يجري يعدو كأجاويد الخيل -يعني: كالخيل الجياد في سرعتها-.

ومنهم: من يعدو عدوًا؛ يجري جريًا.

ومنهم: من يهرول هرولة.

ومنهم: من يمشي سعيًا.

ومنهم: من يمشي علىٰ يديه ورجليه.

ومنهم: من يتكفأ حتىٰ يكون نوره في إبهام قدمه، فإنه ينير مرة، فإذا ما أنار تحرك، ويطفأ أخرىٰ، فإذا طُفئ توقف.

وعلىٰ جَنبتي الصراط كلاليب كَحَسكِ السَّعْدَان، وتلك الكلاليب كالخطاطيف، ولها حساسيات معينة جعلها الله -تبارك وتعالىٰ- موكلة

بأصحاب المعاصي؛ فتأتي بالذي يمر علىٰ الصراط يُغمس في النار، ثم يقام علىٰ الصراط علىٰ حسب ما هنالك من الذنوب والآثام.

هذا الصراط منصوبٌ علىٰ ظهر جهنم، يمر الناس عليه علىٰ قدر أعمالهم.

فأولهم كالبرق -اللهم اجعلنا منهم-، ثم كَمَرِّ الريح، ثم كَمرِّ الطير، والنبي ﷺ قائمٌ علىٰ الصراط يقول: يا رب سلِّم سلِّم، يا رب سلِّم سلِّم، حتىٰ تعجز أعمال العباد، حتىٰ يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفًا.

وفي جنبتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أُمرت به، فمخدوشٌ ناجٍ، ومُكردسٌ في النار.

ونؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار ذلك اليوم وأهواله -أعاذنا الله تبارك وتعالىٰ من ذلك جميعه، وأعاننا الله تبارك وتعالىٰ عليه-.

نؤمن باليوم الآخر، نؤمن بالموت، وبأن القبر هو أول منزلٍ من منازل الآخرة.

ونؤمن بما أخبرنا به النبي ﷺ من نزع الروح، وأن العبد إذا كان في سياق الموت يُحتضر، وكان من أهل الخير جاءه ملائكةٌ بيض الوجوه،

عليهم ثيابٌ بيض، معهم حَنوطٌ من حَنوط الجنة، ويجلسون منه مدَّ البصر.

حتىٰ إذا ما أذن الله -تبارك وتعالىٰ- للروح أن تخرج خرجت كالقطرة من فِي السقاء، كما تخرج قطرة الماء من فم القربة، منسابة بغير ما تعسرٍ، وإنما تخرج بانسيابية ونعومةٍ تامتين.

فتوضع الروح في تلك الأكفان، وتحنط؛ أي: تطيب بذلك الطيب.

ثم تصعد بها الملائكة إلىٰ السماء، يستفتحون أبواب السموات، فكلما مروا بباب سماءٍ قال لهم من هنالك: ما هذه الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب؟ يقولون: روح فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كان يدعىٰ بها في الدنيا.

حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ-، فيقول الله -جل وعلا-: اجعلوا روح عبدي هذا في عليين، ثم أعيدوها إلىٰ الأرض، فتعود إلىٰ الأرض مرةً أخرىٰ.

ثم إذا ما كان من أهل الشقاوة جاءته ملائكة سود الوجوه، عليهم مُسوحٌ سُود، ومعهم أكفان من ثياب أهل النار، وحنوطٌ من حنوط أهل النار، يعني: من الغسلين والصديد -نسأل الله العافية-، حتىٰ إذا ما آن أوان خروج

الروح نُزعت كما ينزع السفُّود من الصوف المبلول.

ثم يصعدون بها، فكلما مروا علىٰ أهل سماءٍ سألوهم: ما هذه الروح الخبيثة كانت في الجسد الخبيث؟ يقولون: روح فلان بن فلان، بأخبث أسمائه التي كان يدعىٰ بها في الدنيا.

حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ-، فيقول: اجعلوا روح عبدي هذا في سجين، ثم أعيدوها إلىٰ الأرض.

فنؤمن بأن الموت علىٰ هذا النحو الذي وصفه النبي ﷺ، وأن الإنسان يعاني فيه السكرات، كما كان النبي ﷺ يعاني، وكان يضع يده في إناءٍ هنالك قبل أن يثقل بدنه ثم يمسح جبهته ووجههﷺ، يقولﷺ: «**سُبحانَ اللهِ! إنَّ لِلمَوتِ لَسَكَرَاتٍ، إنَّ لِلمَوتِ لَسَكَرَاتٍ**»[1].

ونؤمن بعذاب القبر، نؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- جعل القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار.

نؤمن بسؤال الملكين في القبر، كما أخبرنا النبيﷺ في الحديث

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٩)، ولفظه: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات ...**».

الذي مرَّ ذكر بعضه، من حديث البراء عند أحمد وأصحاب السنن بإسنادٍ صحيح، وأن الإنسان إذا ما غُيِّب في قبره جاءه ملكان أزرقان يتعثران في شعورهما، يخدَّان؛ أي: يخطان الأرض بأنيابهما خطًّا، وينقدح من أعينهما الشرر، معهما مرزبة كما بين السماء والأرض، لو اجتمع الثقلان -أي: الإنس والجن- علىٰ أن يحلحلوها من موضعها قيد أُنملة ما استطاعوا.

فيقعدانه يسألناه من ربك؟ فإذا كان من أهل السعادة، قال: ربي الله، وإذا كان منافقًا، وإذا كان مجرمًا، قال: هَا هَا، لا أدري، فيُقال: لا دَريت ولا تَلوت، ويضربون بتلك المِرزبة يغيب في الأرض ما شاء الله، ثم يُخرج بعدُ من أجل أن يسأل، ثم يكون عليه من العذاب في القبر ما الله به عليم.

نؤمن بأن هذا جميعه يحدث في القبر، مع أنك تقف أمام القبر لا ترىٰ شيئًا.

ونؤمن بأن الإنسان يتسع عليه قبره إذا ما مات حتىٰ يكون مد بصره، وأن القبر يضيق علىٰ الإنسان إذا ما غُيب فيه، كما أخبر النبي ﷺ حتىٰ تختلف الأضلاع.

ولو كان أحد ناجيًا، لنجىٰ سعد بن معاذ، كما قال الرسول ﷺ.

فإذا وضع الإنسان في قبره، وجاءت ضَمَّة القَبر لا ينجو منها أحد، قال النبيﷺ: «**لَو كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا لَنَجَىٰ سَعدُ بنُ مُعَاذٍ**»(١).

وسعد بن معاذ رضي الله عنه اهتزَّ عرشُ الرحمن لموته كما قال النبي ﷺ، والحديث في الصحيح: «**اهتَزَّ عرشُ الرَّحمَنِ لمَوتِ سَعدِ بنِ مُعَاذٍ**»(٢).

وكان النبي ﷺ في جنازته يمشي علىٰ أطراف أصابع قدميه، فقيل: لِمَ يا رسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مِن كَثرَةِ مَن شَيَّعَهُ مِنَ المَلائِكَةِ**»(٣).

ولما كانت حفرته تُحفر، كلما أخرجوا منها التراب تَضوَّع المكانُ بِرِيح المِسك الأذفَر.

ومع ذلك لما غُيب في قبره -رضوان الله عليه-، انضم عليه قبره حتىٰ تختلف الأضلاع، تختلف الأضلاع يعني: تصبح الأضلاع اليمني إلىٰ جهة اليسار، واليسرىٰ إلىٰ جهة اليمين...هكذا، حتىٰ تختلف أضلاعه.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦).

(٣)

لن ينجو أحدٌ من ضمة القبر؛ فهذا أمرٌ كتبه الله رب العالمين علىٰ كل أحد، لو كان أحدٌ ناجيًا لنَجىٰ سعد بن معاذ.

ثم يأتيه الملكان يقعدانه يسألانه: من ربك؟ ما دينك؟ ما تقول في الرجل الذي بعث فيكمﷺ؟

وعلىٰ حسب الإجابة يكون المصير، فإذا كان من أهل الثبات فأجاب، فإنه ينعم في قبره، فيصير القبر حينئذٍ روضة من رياض الجنة، وإذا كان غير ذلك فإنه يُعذَّبُ في قَبره، وهذا هو البرزخ ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

فمن بعد أن يموت الإنسان إلىٰ أن يقيم الله -تبارك وتعالىٰ- الساعة هذه هي الفترة البَرزخية.

فيها عذابٌ موصوف كما بينه لنا النبيﷺ في حال الذين يفطرون قبل تحلة صومهم، عندما رآهم النبي ﷺ مُعلَّقين من عراقيبهم، من أوتار أقدامهم، كما تعلق الذبائح، مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دمًا، فهذا عذابٌ في البرزخ من بعد الممات إلىٰ أن يأذن الله رب العالمين بقيام الساعة.

الرجل الذي يفتري الكذب، ويُطيِّر الكذبة تبلغ الآفاق، هذا عقابه في

البرزخ موصوف.

كما بيَّن لنا النبي ﷺ في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه في حديث المنام الطويل عن رسول الله ﷺ، الرجل الذي ينام علىٰ الأرض، وآخر معه كَلُّوبٌ من حديد كمثل الخطاف، يُشرشر شدقه إلىٰ قفاه، ومنخره إلىٰ قفاه، وموقه إلىٰ قفاهُ من الجهة اليُمنىٰ، ثم يتحول إلىٰ الجهة اليسرىٰ، فتلتئم الجهة اليمنىٰ، فيشرشر شقه إلىٰ قفاه، ومنخره إلىٰ قفاه، وموقه إلىٰ قفاه، ثم يتحول إلىٰ الجهة اليمنىٰ فتصح وتلتئم الجهة اليسرىٰ، فما زالوا كذلك.

فلما سأل النبي ﷺ: ما هذا؟ قيل له: هذا الرجل يخرج من بيته يكذب الكذبة تبلغ الآفاق، يطير شائعةً من الشائعات، يفتري فرية من الفِرَىٰ، فتبلغ الآفاق.

الرجل الذي يؤتيه الله -تبارك وتعالىٰ- القرآن فينام عنه ويرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة، هذا الرجل عذابه في البرزخ كالآتي:

ينام إلىٰ قفاه، ويأتي رجلٌ ممن وُكل بعذابه من ملائكة الرحمن -جل وعلا- فيأتي بحجرٍ يَشدخ به رأسه، والشدخ: هو كسر ما كان مجوفًا، كمثل أن تأتي بإناءٍ من الفخار فتكسره شدخًا، فيضربه بالحجر، فيشدخ رأسه،

فيتدهده الحجر، أي: يتدحرج الحجر بعيدًا، فيذهب من أجل أن يأتي بالحجر، فيصح رأسه مرة أخرىٰ، فيعود بالحجر فيشدخ به رأسه، فيتدهده الحجر، فيذهب للإتيان به فيعود فيجده قد صح، وهكذا.

فنؤمن بأن ذلك يكون من بعد الممات، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- هو الحَكَم العدل، وأن الله رب العالمين لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

نؤمن بهذا جَميعِه، وبما هو أكبر من ذلك، وما وراءه من تلك التفصيلات في أمور المعتقد الصحيح التي ينبغي علىٰ العبد أن يبحث عنها، وأن يتأمل فيها، وأن يتعلمها، وأن يصبر علىٰ تعلمها، وأن يعد العُدَّة من أجل لقائه.

❊ ❊ ❊

الإيمان بالقضاء والقدر

ومن أركان الإيمان: الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، كما قال النبي ﷺ.

فنصدق جازمين بأن الله رب العالمين قدَّر مقادير الخلائق أجمعين، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وقال -جلت قدرته-: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

وهذا المبحث من مباحث الإيمان ضلَّ فيه كثيرٌ من الآنام، وعيَّرنا -بسبب هؤلاء الذين ضلوا فيه- أولئك الغربيون الذين هم كالأنعام، فعيرونا وقالوا: إن هؤلاء الذين ينتمون إلىٰ دين الإسلام أقوامٌ متواكلون حقًّا، لأنهم يقولون بالقضاء والقدر.

والقضاء والقدر إذا ما فُهم فَهمًا صحيحًا؛ كان عاملًا حافزًا دافعًا من أجل إحسان العمل، ومن أجل الانطلاق في الحياة علىٰ وجه رشيد صائب من غير ما توانٍ، ومن غير ما تكاسلٍ ولا تواكلٍ ولا شيء.

وإنما لمَّا كان أصحاب النبيﷺ فاهمين لأركان الإيمان علىٰ النحو الصحيح، فاهمين لهذا المبحث من مباحث الإيمان فهمًا صحيحًا، كانوا يتفاعلون مع الحياة تفاعلًا مربحًا منتجًا، أنتج وأثمر ما أنتج وما أثمر مما هو معلوم من تلك الفتوحات التي شملت العالم القديم جميعه في زمانٍ قياسي لم يحدث في تاريخ البشرية قط، ولن يحدث في تاريخ البشرية بعدُ، هذه الفتوحات وقعت في زمانٍ قياسيٍ غير مسبوق ولا هو بملحوق، إن شاء الله رب العالمين.

وكل ذلك لأن أصحاب النبيﷺ حققوا أصول الإيمان، وتفاعلوا مع تلك الأصول، وتحركوا بها في دنيا الله، فأنتجوا وأثمروا، لم يتواكلوا، ولم يتكاسلوا، ولم يتوانوا، وإنما تحركوا بدافعٍ من إيمانهم، وفي ضوء هذا الإيمان العظيم.

*** الإيمان بالقدر علىٰ مراتب أربع:**

الأولىٰ: العلم: نؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- بكل شيءٍ عليم، عَلِم ما كان، وما يكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

تؤمن بهذا، تؤمن بأن الكون دفعة واحدة منذ خلقه الله رب العالمين

إلىٰ أن يرثه مكشوفٌ أمام الله -تبارك وتعالىٰ-.

تؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- ليس عنده ماضٍ وحاضر ومستقبل، هذا لك، ليس عند الله -تبارك وتعالىٰ- زمان، وليس عند الله -تبارك وتعالىٰ- مكان، وإنما هذا قانون الزمان والمكان يحكمك أنت.

وأما الله -تبارك وتعالىٰ- فكان ولا مكان، وكان ولا زمان؛ سبحانه!

فتؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

فغلام الخضر، لما أُمر الخضر بخلع رأسه، كما في الحديث في الصحيح، فخلع رأسه، هذا الغلام لو عاش لكان وبالًا علىٰ أبويه وكان كافرًا يرهقهما طغيانًا وكفرًا، فأمر الله رب العالمين بقتله من أجل أن يبدلهما خيرًا منه زكاةً وأقرب رحمة.

هذا لم يكن، ولكن هذا لو كان كان يكون كذلك، فعلمه الله -تبارك وتعالىٰ- وهو لم يكن.

ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- هو الخلاق العظيم، وهو علام الغيوب.

فأول مرتبة من مراتب القدر: العلم: أن تعلم أن الله -تبارك وتعالىٰ- بكل شيءٍ عليم، هذا مستقرٌّ تمامًا في حبات القلوب.

نؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- ما يأتي كما مضىٰ في علمه، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- لا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ في السموات ولا في الأرض هو العليم الحكيم.

وأما أنت فالغيب المكاني يحكمك؛ فلا تدري ما وراء الجدار، والغيب الزماني يحكمك؛ فلا تدري ما يأتي بعد اللحظة، تعلم ماذا؟ لا تعلم شيئًا، فأنت محكومٌ بقانون الزمان والمكان.

وأما ربك -جلت قدرته- فإنه يعلم ما كان، وما يكون، وما هو كائنٌ، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كل ذلك مكشوفٌ دفعة عند ربك -جل وعلا-.

ونؤمن بالمرتبة الثانية من مراتب القدر، وهي: الكتابة: فنؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائنٌ علىٰ مقتضىٰ علمه، الذي هو صفة انكشافٍ لربنا -جل وعلا-، فعلم ما سيكون فكتبه.

أمر الله رب العالمين القلم بأن يكتب مقادير الأشياء، كما قال النبي

ﷺ، فكتب القلم مقادير الأشياء، وذلك قبل أن يخلق الله رب العالمين السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فكتب الله رب العالمين مقادير الأشياء.

المرتبة الأولىٰ من مراتب القدر: أن نؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- له صفة العلم المحيط، وهي صفة انكشاف، فليس عند ربنا -جلت قدرته- ماضٍ وحاضر ومستقبل، الأمر كله مكشوفٌ دفعة واحدة في علم الله رب العالمين.

ثم جاءت المرتبة الثانية من مراتب القدر: وهي الكتابة، فكتب الله رب العالمين، أمر القلم أن يكتب مقادير الأشياء علىٰ مقتضىٰ علم ربنا -جل وعلا-، فكتب القلمُ مقادير الأشياء، ما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

هذه التقادير في مسألة الكتابة فيها تقديرٌ أزلي قبل خلق السموات والأرض.

ومنها: كتابة الميثاق يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ

رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾، فهذه كتابة في يوم الميثاق، تقدير.

وتقديرٌ عُمري، عند تخليق النطفة في الرحم، فيُرسل الملك، فينفخ في المضغة الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد، فهذا تقديرٌ عمري.

وتقديرٌ حوليٌّ في ليلة القدر، فيها يُفرَق كلُّ أمرٍ حكيم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يكتب من أمِّ الكتاب في ليلة القدر نسخة تستنسخ من أم الكتاب، تستنسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من كل عام، نسخة حولية.

فيُكتب ما يكون في السنة، يعني من ليلة القدر إلىٰ ليلة القدر التي تلي، من موت، فكل من يموت من ليلة القدر إلىٰ ليلة القدر التي تلي يُستنسخ من أم الكتاب اسمه، وما يكون من أمر وفاته.

وكذلك ما يكون من أمر الحياة برزق الأحياء حيواتِهم، ورزقٍ، ومطر، حتىٰ الحُجاج يقال: يحج فلانٌ ويحُج فلان.

فكُل ذلك كما يقول ابن عباس: إنما يُكتب من أُمِّ الكتاب في ليلة القدر.

وتقدِير يومي: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

التقدير اليومي تفصيلٌ من التقدير الحولي، والتقدير الحولي تفصيلٌ من التقدير العمري عند تخليق النطفة، والعمري تفصيل من التقدير العمري الأول يوم الميثاق، وهو تفصيلٌ من التقدير الأزلي الذي خطه القلم في الإمام المبين واللوح المحفوظ، وهو من علم الله ﷻ.

وكذلك مُنتهىٰ المقادير في آخريتها إلىٰ علم الله رب العالمين، فانتهىٰ الأوائل إلىٰ أوليته، وانتهت الأواخر إلىٰ آخريته، وأن إلىٰ ربك المنتهىٰ.

ونُؤمن بالمرتبة الثالثة من مَراتب الإيمان بالقدر وهي: المَشيئة؛ فنؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- قد شاء كل ما في السموات والأرض، لا يكون شيءٌ إلا بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

والمَشيئة إنما هي تتوجه فيه الإرادة من أجل الاختيار بين البدائل؛ لأن الإنسان في الخلق مثلًا عند التخليق -تخليق النطفة في الرحم-، يمكن أن يكون ذكرًا أو أنثىٰ، ويمكن أن يكون طويلًا أو قصيرًا، ويمكن أن يكون

أبيض أو أسود، ويمكن أن يكون وأن يكون من تلك البدائل.

فتأتي المشيئة هاهنا بمسائل الاختيار علىٰ مقتضىٰ العلم الأزلي، علم ربنا -جل وعلا-، فتأتي الأمورُ علىٰ هذا النحو البَديع.

ثم مرتبة الخلق؛ فالله -تبارك وتعالىٰ- خالق كل عاملٍ وعمله، وكل متحركٍ وحركته، وكل ساكنٍ وسكونه.

ومع ذلك نؤمن أن الله -تبارك وتعالىٰ- أعطىٰ للعباد قدرة علىٰ الأعمال؛ فإن الله -تبارك وتعالىٰ- هو خالق اليد، خالق الجَارحةِ، وهو خالق الطاقة، ولكن الله رب العالمين أعطاك التوجيه للطاقة.

وخلق الله رب العالمين الجارِحةَ صالحة للخير والشر علىٰ السواء، صالحة لأن تُعطي مسكينًا وأن تمسح علىٰ رأس يتيم، وصالحة لأن تسرِقَ وتختلس وتقتُلَ أيضًا.

فجعل الله -تبارك وتعالىٰ- مسألة التوجيه للطاقة المخلوقة لله، في الجارحة المخلوقة لله، عليها مدار الحساب من ثوابٍ وعذاب، فهذا لك علىٰ حسب الاختيار الذي جعله الله رب العالمين للكائنِ الإنسانِي.

فجعل الله رب العالمين للعباد قدرةً علىٰ أعمالهم، ولهم مشيئة

وإرادة، والله تعالىٰ هو خالقهم، وخالق مشيئتهم، وقدرتهم، وأقوالهم، وأعمالهم.

والأقوال والأفعال الصادرة منهم تضاف إليهم حقيقة، وعليها يُثابون أو يُعاقَبون، وهم لا يقدِرون إلا علىٰ ما أقدرهم الله رب العالمين عليه.

فهذه هي مراتب القدر باختصار: مرتبة العلم، ومرتبة الكتابة، ومرتبة المشيئة، ومرتبة الخلق، وفيها تفصيلٌ من وراء تفصيل.

وليعلَم المُسلِمُ: ركن الإيمان بالقضاء والقدر من أهم تلك الأركان، وأعمقها غورًا، والذي لا يحيط به علمًا، ولا يستجليه فهمًا، لا يحس طَعم الحياة أصلًا.

ولكي نفهمه -إن شاء الله تبارك وتعالىٰ- علىٰ وجهه، نرىٰ موقعه من الخريطة العامة للدين في حديث جبريل عندما جاء النبيَّ ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد.

وهذا غريب؛ لأنه عندما يكون غير آخذٍ بِعُدَّة السَّفر، فإن معنىٰ ذلك أن يكون مقيمًا لا غريبًا، ومع ذلك لا يُرىٰ عليه أثر السفر، فكأنه مقيمٌ حالٌّ

من أهل المكان، ولا يعرفه منا أحد، فمن أينَ جاء؟

جاء جبريل رسولَ الله ﷺ في صورة رجل يقال له: دِحيَة الكَلبِي، وكان جميل الصورة، بَهيَّ الطلعة، فجلس إلىٰ النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع يديه علىٰ فَخِذيه، أي: علىٰ فخذي نفسه.

ثم سأل النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟

فقال: «**أَن تَشهَدَ أن لَا إلَهَ إلَّا الله، وأنَّ مُحمدًا رسُولُ اللهِ، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتِي الزكَاةَ، وتَصومَ رمَضانَ، وتَحجَّ البَيتَ إن استَطعْتَ إلَيهِ سَبِيلًا**»(١).

قال: صَدقتَ.

قال عمرُ رضي الله عنه -وهو رَاوي الحَديث-: فَعجِبنَا لهُ يسألُهُ ويُصدِّقهُ.

لأنَّ الأصل في السائل: ألا يكون عارفًا بإجابة المسئول، فكيف يقول له: صدقت، والأصل أنه هو السائل، والسائل جاهلٌ بما يسأل عنه، ولكنه بعد أن أجاب النبيُّ ﷺ بتلك الإجابة قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

ويصدقه.

قال: فأخبِرنِي عنِ الإيمَانِ؟

قال: «**أَن تُؤمِنَ بِالله، ومَلائِكَتِهِ، وكُتبِهِ، ورُسلِهِ، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ**»(١).

فهذِهِ ستةُ أركانٍ للإيمَانِ، وخَمسةُ أركانٍ للإسلَامِ.

قالَ: فأخبِرنِي عَن الإحسَانِ؟

قالَ: «**أن تَعبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فَإن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ**»(٢).

فهذان ركنان للإحسان؛ فمجموع أركان الدين العام: هي ثلاثة عشر ركنًا: خمسةُ أركان للإسلام، وستةُ أركان للإيمان، وركنان للإحسان.

الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فهذه مشاهدة، مقام المشاهدة، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذا مقام المراقبة.

---

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) التخريج السابق نفسه.

ثم سألَ النبيَّ ﷺ عن السَّاعة، قال: فأخبِرني عن الساعَةِ؟

قال: «**مَا المَسئولُ عَنهَا بِأعلَمَ مِن السَّائِلِ**»(١).

قال: فَأخبِرنِي عَن أمَارَاتِها، يَعني: عن عَلامَاتِها؟

فقَالَ: «**أَن تَلدَ الأمَةُ رَبَّتَهَا، وَأن تَرَىٰ العَالَةَ الحُفَاةَ العُرَاةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتطَاولُونَ فِي البُنيَانِ**»(٢).

مضَىٰ الرجلُ لحالِ سبيله، وسألَ النبيُّ ﷺ عمَرَ وأصحَابَهُ -رضوانُ الله عَليهم- عن هذا الرجلِ الغَريبِ الذي يسألُهُ، فقالُوا: الله ورسُوله أعلَمُ.

قال: **ذَلكَ جِبريلُ أتَاكُم يُعلِّمُكُم دِينَكُم**.

إذن الدين المذكور في هذا الحديث: الإسلام، الإيمان، الإحسان، علامات الساعة، وعلامات الساعة التي ذكرها النبي ﷺ تدخل في ذلك الغيب الذي أخبرنا به الرسول ﷺ؛ فكأنَّها ممَّا يلحق بالإيمان باليومِ الآخر.

قال النبي ﷺ في أركانِ الإيمانِ: «**أن تُؤمِنَ بِاللهِ** -بوجُودِه ﷻ،

---

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) التخريج السابق نفسه.

وبربُوبيتِهِ، وبأُلُوهيَّتِهِ، وبأسمائِهِ وصفَاتِهِ-، **ومَلائكَتِهِ، وكُتبه، ورُسلِه، واليَومِ الآخِرِ** -بكل ما فيه-، **والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ**»[1].

*** الإيمان بالقضاء والقدر:**

قال العلماء -رحمة الله عليهم-: إن مراتب الإيمان بالقدر أربع مراتب هي:

الإيمان بعلم الله المحيط، أن تؤمن بأن الله -تبارك وتعالىٰ- عليمٌ بكل شيء، بظواهر الأمور وبواطنها.

الله -تبارك وتعالىٰ- يعلم ما كان وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فعلمُ الله -تبارك وتعالىٰ- صفة انكشاف.

والله -تبارك وتعالىٰ- لا يَحدُّه زمانٌ ولا مكان، فعلم الله -تبارك وتعالىٰ- تنكشف به جزئيات الأشياء، يعلم الله -تبارك وتعالىٰ- ما هو آت.

حتىٰ إن الله -تبارك وتعالىٰ- في القرآن العظيم تجد الأسلوب عند التعبير يتكلم عما لم يأتي بعد، بل هو حادثٌ في الزمان المستقبلي بالنسبة لنا،

---

(١) التخريج السابق نفسه.

ومع ذلك يعبر الله -تبارك وتعالىٰ- عنه بصيغة الماضي: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل:١]، أتىٰ أمر الله فلا تستعجلوه؛ لأن ما هو آتٍ في علم الله -تبارك وتعالىٰ- كالذي أتىٰ وتحقق ووقع.

ليس عند الله -تبارك وتعالىٰ- زمان؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- كان ولا زمان ولا مكان.

مسألة الزمان والمكان -كما هو معلوم- إنما تأتي من حركة الأرض حول محورها أمام الشمس، فيأتي الله والنهار، فالوجه الذي يقابل من الأرض الشمس يكون نهارًا، والوجه الآخر يكون ليلًا، ثم تدور الأرض حول محورها فيتعاقب الليل والنهار.

إذن الليل والنهار إنما أَتَيا من وجود هذه الأرض، ومن وجود هذه الشمس، من وجود هذا الكون، من هذا الخلق.

ثم حركة الأرض حول الشمس تحدث بها الفصول الأربع، إذن الفصول الأربع، والزمان من الثانية، إلىٰ الدقيقة، إلىٰ الساعة، إلىٰ اليوم، إلىٰ الأسبوع، إلىٰ الشهر، إلىٰ السنة، إلىٰ القرن، إلىٰ الدهر، إلىٰ ما شئت...كل ذلك إنما ترتب علىٰ وجود هذه الأرض وهذه الشمس، وحركة الأرض

حول محورها، وحركة الأرض حول الشمس.

كان الله -تبارك وتعالىٰ- ولا أرض، ولا شمس، ولا سماء، ولا شيء، وخلق الله رب العالمين الخلق.

إذن هذا الزمان لي ولك، وهذا المكان لي ولك، وأما الله -تبارك وتعالىٰ- فمنزهٌ عن الزمان والمكان.

فلابد أن يكون الإنسان واعيًا؛ لأن علم الله -تبارك وتعالىٰ- علمٌ به تنكشف المعلومات فيما مضىٰ، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

هذا علمٌ محيط، علىٰ مقتضىٰ هذا العلم المحيط كتب الله -تبارك وتعالىٰ- مقادير الأشياء.

أمر الله رب العالمين القلم فكتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات بخمسين ألف سنة، كتب القلم مقادير الأشياء.

هذه الكتابة يحدث فيها استشكال؛ فيقول الإنسان: إذا كان الله -تبارك وتعالىٰ- قد كتب عليَّ ما سوف أفعله، إذن قد أجبرني علىٰ فعل ما سوف أفعله، فلماذا يحاسبني؟

يقول: إذا كانت الكتابة علىٰ هذا النحو، وقد كُتب ما سيكون، إذن ففيم العمل؟ كتب ما سيكون، إذن ففيم الحساب؟ كتب ما سيكون، إذن أنا مجبَرٌ علىٰ أن أفعَل الفعل الذي كُتب؟

فلا يَفهم العلة في مسألة الكتابة، الكتابة إنما كانت علىٰ مقتضىٰ العلم، والعلم صفة انكشَاف، بمعنىٰ: أن الله -تبارك وتعالىٰ- لما أعطاك الإرادة، وأعطاك الاختيار، وجعلك مريدًا مختارًا، فأنت تختار علىٰ ضوء إرادتك واختيارك ومشيئتك التي جعلها الله -تبارك وتعالىٰ- لك.

أنت تَختار اختيارًا حرًّا، والله -تبارك وتعالىٰ- يعلم ما سوف تختار، فكتب ما سوف تختار من غير أن يجبرك علىٰ أن تفعله، بل أنت الذي سوف تفعله باختيارك، بمشيئتك، بإرادتك، برغبتك، من غير أن يجبرك علىٰ فعله.

هنا مثلٌ مَضروب يستشكلُ بعض طلاب العلم هذا المثل لعدم اتساع أفقه، فيُدخل فيه بعض الأشياء، فدعنا من هذا لا تلتفت إليه.

ولكن المِثال المَضروب هُو: عندك في البيت خادم، هذا الخادم يقوم علىٰ خدمة أهل البيت، منذ دخل البيت حدثت أمور تدل علىٰ وقوع السرقات في البيت، علىٰ يقين أنت بأن الذي يسرق هو هذا الخادم، ولكنك

لم تُرد أن تأخذه بمجرد هذا العلم، وإنما أردت أن تأخذه متلبسًا بجريمته.

فوضعت له قدرًا من المال في حجرة، وأمرته بأن يدخل من أجل أن يقوم علىٰ تنظيف هذه الحجرة، دخل، وأغلقت عليه الباب، وجلست أنت خارجًا، أتيت بكرسيٍّ جلست عليه تنتظر أن يفرغ من تنظيف الحجرة، أنت تعلم يقينًا أنه سوف يسرق.

ودخل، ووقع الفعل منه علىٰ حسب العلم الذي لديك، وكان العلم لديك مسبقًا سابقًا لفعله، فجاء فعلُه مطابقًا لعلمك، هل علمك السابق بأنه سوف يسرق هو الذي أجبره علىٰ أن يسرقَ؟

هو دخل وسرَق باختياره، بإرادَتِهِ، بمَشيئَتِهِ، بحريته، ولكن أنت جلست خارجًا، قلت: سيسرق، وأنا علىٰ يقين أنه سيسرق، مع أن هذا علم بشري، يمكن هو أن يحس بالريبة وبالشك فلا يسرق، ولكن أنت جلست خارجًا، وقلت: سوف يدخل وسوف يسرق.

ورتبت علىٰ هذا الفعل الذي لم يقع منه بعد علىٰ حسب علمك أنت بفعله الذي لم يقع، رتَّبت عليه أحداثًا، أحضرت له باقي حسابه، ومُتعلَّقاته، وجلست جانبًا تنتظر الإتيان بالفعل، ووقع الفعل مطابقًا للعلم الذي لديك،

هل علمك السابق بأنه سيسرق هو الذي جعله يسرق؟

لله المثل الأعلىٰ، الله ﷻ يعلم ما سيكون من قبل أن يكون فكتبه، وعندك أنت حرية اختيار في الفعل الذي يقع منك.

فِعلٌ يقع عليك، وفِعلٌ يقع فيك، وفِعلٌ يقع منك، الفعل الذي يقع عليك أن الإنسان يمكن أن يكون خارجًا فتلتوي ساقه عند الدَّرَج -عند السلم-، فيقع فيكسر، هذا فِعلٌ وقع عليه.

الله رب العالمين يحاسبه علىٰ رد فعله هو، علىٰ قدر الله فيه، فإذا قام فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجِرنِي في مصيبتي وأخلف لي خير منها؛ كان مُثَابًا.

وإذا تمرَّد وسخط علىٰ قدر الله -تبارك وتعالىٰ- فيه، فإن الله يعاقبه علىٰ اعتراضه علىٰ القدر، لا علىٰ الفعل الذي وقع عليه، إلا إذا كان قد أخذ بالمقدمات التي تؤدي إلىٰ وقوع الفعل عليه.

كذلك الفعل الذي يقع فيك، الله -تبارك وتعالىٰ- لن يسألك يوم القيامة لم كنت طويلًا؟! لم كنت قصيرًا؟! لم كنت أبيض! لم كنت أسود؟! لن يسألك الله -تبارك وتعالىٰ- عن دقات قلبك، ولا حركة أمعائك.

ولكن الله -تبارك وتعالىٰ- يسألك عن مقدمات الفعل التي تكون سببًا لوقوع الفعل فيك.

والمَثل المضروب: تليف الكبد، يحدث بأن يأخذ الرجل بالعمل في أرضه، يفلح أرضه من أجل قوته وقوت أولاده، فيصاب بذلك الطفيل، يتليف منه كبده، ثم يحدث عنده بعد ذلك تضخم في الطحال، ثم بعد ذلك تمضي المسألة إلىٰ نهايتها بالدوالي النازفات والاستسقاء وما أشبه، تحدث تلك الأشياء التي قد تؤدي في النهاية إلىٰ أن يتوفاه الله -تبارك وتعالىٰ-.

لم يكن سببًا هو في وقوع هذا الفعل فيه، ولكن لمَّا وقع الفعل فيه بقدر الله -تبارك وتعالىٰ- كان حامدًا لله، شاكرًا لله، مصليًا علىٰ رسول الله ﷺ، ماذا يحدث؟ إن مات بذلك فهو شَهيد، من قتله بطنُه فهُو شهيد.

هذه النتيجة بعينها يمكن أن يصل إليها الإنسان من طريقٍ أخرىٰ، وهو أن يعاقر الخمر؛ فالذي يدمن الخمر يحدث عنده نفس الترتيب، يتليف كبده، ويؤدي به في النهاية إلىٰ ذلك الأمر، هذا كان سببًا في وقوع الفعل فيه.

المهم: الفعل الذي يقع منك هذا لك فيه الحرية، ولك فيه الاختيار.

الله رب العالمين خلق الجارحة، وخلق الطاقة التي في الجارحة،

فكل ذلك مخلوقٌ لله رب العالمين، وأعطاك الله رب العالمين حرية واختيارًا تفعل ولا تفعل.

إذا قال لك إنسان: إنك مجبور.

فقل له: هذا الأمر الذي تقول إني مجبورٌ عليه، لو أننا عرضنا عليك الآن وظيفتين راتب إحداهما ألف دولار في الشهر، وراتب الأخرىٰ عشر جنيهات، ستختار أيهما؟

ستختار الأولىٰ بلا جدال، لِمَ لَمْ تكن مجبورًا في هذا؟!

يعني: لماذا تختار هاهنا وتثبت اختيارًا ومشيئة وحرية في الاختيار، تقول هذا؟

إذا قال لك إنسان: إنك إن أردت أن تصل إلىٰ البلد الفلانية، فاسلك الطريق الفلاني، فإنه أيسر وأسهل، وفيه من المميزات كذا وكذا، أما الطريق الآخر، ففيه حفرٌ وإصلاحٌ وتجديد، فحذارِ أن تسلكه، وإلا فلن تصل إلا بعد عناءٍ ومشقة، وقد يمتد الزمان بك فلا تصل إلا في اليوم الثاني.

حينئذٍ تختار، لماذا لا يسير الإنسان في الطريق الوعر الشاق ويقول: هو قدر قدَّره الله رب العالمينَ عليَّ؟!

لماذا يختار هنا، ويثبت الجبر في المسائل المتعلقة بالشريعة؟

يقال له: لِمَ لَمْ تُصَلِّ؟

يقول حينئذٍ: إن الله -تبارك وتعالىٰ- كتب عليَّ ألا أصلي في أمِّ الكتاب، فأنا لا أُصلي.

أنت لا تصلي باختيارك، أنت لا تصلي برغبتك ومشيئتك، هذا فعلٌ يقع منك، فالله رب العالمين يُعطيك فيه حرية الاختيار.

الله -تبارك وتعالىٰ- له العلم الكامل الشامل المحيط، علىٰ مقتضىٰ هذا العلم الشامل الكامل المحيط كتب مقادير الأشياء.

وكان التقدير في الكتابة في اللوح المحفوظ أن الله -تبارك وتعالىٰ- كتب ذلك في اللوح المحفوظ في أمِّ الكتاب قبل خلق السموات والأرض.

ثم جاءت كتابةٌ أخرىٰ في يوم الميثاق، يوم أخذ الله رب العالمين الميثاق علينا ونحن في عالم الذرِّ، فأخرجنا الله رب العالمين كما يقول المفسرون -رحمهم الله- من صلب أبينا آدم، ثم أشهدنا علىٰ أنفسنا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فقلنا جميعًا: ﴿بَلَىٰ﴾، فهذا هو العهد في يوم

الميثاق.

ثم الكتابة العُمرِيَّة عند التخليق -تخليق النطفة في الرحم-، فيرسَل إليه الملك، ويؤمر بكتب أربع كلمات: برزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد، كما قال النبي ﷺ.

ثم تقديرٌ حوليٌّ في ليلة القدر من كل عام، تُستنسخ نسخة من اللوح المحفوظ.

ثم تقديرٌ يومي، كل يوم هو في شأن.

التقدير اليومي تفصيلٌ من التقدير الحولي -أي: السنوي-، التقرير السنوي بالنسخة السنوية التي تُستَنسخُ من أم الكتاب، والحولي تفصيلٌ من التقدير العمري عند تَخليق النطفة، والعمري تفصيلٌ من التقدير العمري الأول يوم الميثاق، وهو تفصيلٌ من التقدير الأزلي الذي خطَّه القلم في الإمامِ المبين.

كَتبَ الله رب العالمين مقاديرَ الأشياء، ألا يعلمُ مَن خَلَق؟

أوَتَسيرُ هذه الدنيا كما يريد الخَلق فيها؟!

أوَتَحدثُ المفاجآت بالنسبة لربِّ الأربَابِ؟!

سُبحان الله ربِّ العالمينَ!

الله رب العالمين يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

كتب الله رب العالمين، أمر الله رب العالمين القلم فكتب في اللوح المحفوظ، كتب الله رب العالمين مقادير الأشياء علىٰ هذا النحو.

وجعل الله رب العالمين للعبد حريةً، ومشيئةً، واختيارًا، وإلا فإن الله -تبارك وتعالىٰ- لو أنه حاسب الناس وهم مجبورون علىٰ أن يفعلوا ما يفعلون، لكان -حاشىٰ لله رب العالمين وتعالىٰ وجل- لكان لهم ظالمًا.

لأنه عندما يكون المرء مجبورًا علىٰ فعل المعصية، ثم يحاسبه الله رب العالمين علىٰ فعلها، فإن هذا يكون ظلمًا، وكذلك الذي يكتب له أن يفعل الطاعات، فهذا ترجيح من غير مُرجِّح.

ومع ذلك لو أن الله -تبارك وتعالىٰ- أدخل الناس النار وهم محسنون ما كان لهم ظالمًا؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- يفعل ما يشاء.

ونحن نقول في أمثلتنا نحن، في حياتنا نحن البشر، نقول: من حكم في ماله فما ظلم، ونحن مِلكٌ لله رب العالمين.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ واللام للملك، يعني: نحن ملكٌ لله رب العالمين ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

فلو أن الله -تبارك وتعالىٰ- أدخل الخلق جميعًا النار، لأدخلهم النار وهو لهم غير ظالم ﷻ.

فالله رب العالمين يفعل ما يشاء، ومع ذلك فإن الله -تبارك وتعالىٰ- جعل لنا حرية، وجعل لنا اختيارًا في هذا الفعل الذي يقع منا.

فالإنسان إذا ما كان واعيًا لمبحث القضاء والقدر كان عالمًا بأنه مسئول مسئولية مباشرة عما يقع في حياته من السعادة والشقاء، وأن ذلك بما قدمت يداه.

وأن الإنسان يخلط أحيانًا بين الفعل الذي يقع عليه، والفعل الذي يقع منه، والفعل الذي يقع فيه؛ فيجعل الفعل الذي يقع منه مُلْحقًا بالفعل الذي يقع عليه والفعل الذي يقع فيه.

وهذا خطأ؛ لأنك مَسئولٌ عن الفعل الذي يقع منك، ولكن أنت تُلحقه فيما ينزل علىٰ الإنسان من تلك المُقدرات التي يُقدرها الله رب العالمين علىٰ الخلق في الأرض، ليبتليهم الله رب العالمين بِها.

فيُلحق ما يقع منه بإرادته ومشيئته واختياره بذلك، ثم يتعلل بالقضاء والقدر، وهذا خطأ بيِّنٌ جدًّا، ينبغي أن يُصحح في العقلية والذهنية الإسلامية.

أنت حرٌّ فيما تأخذ به من اختيار، والله رب العالمين يجعل لك عند إحسان اختيارك ما نسميه بالهداية الخاصة.

الهداية العامة جعلها الله رب العالمين للخلق أجمعين من كافرٍ ومؤمنٍ، من برٍّ وفاجر، من مسلمٍ ومشرك، جعل الله رب العالمين الهداية العامة للبشر في الأرض.

الهداية العامة معناها: أن الله -تبارك وتعالىٰ- وضَّح لنا السبيل ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠].

فأرسل الله رب العالمين الرسل، وأنزل الله رب العالمين الكتب؛ ليوضح هؤلاء الرسل للبشر في الأرض طريقَ الحق، وطريقَ الضلال، طريق الهدىٰ والنور، وطريق الظلمة، والشرك، والبعد عن منهج الله رب العالمين.

فهذا واضح، هداية عامة، أرسل إليك الرسول؛ لكي يدلك بمعنىٰ الدلالة والإرشاد، هداية الدلالة والإرشاد، فجاء الرسول فهداك إلىٰ الطريق، وأرشدك إليه.

وأما الهداية الخاصة بمعنىٰ: هداية القلب؛ فإنها لا تكون إلا لله رب العالمين، حتىٰ النبي ﷺ لا يملكها؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- يقول له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، مع أن الله -تبارك وتعالىٰ- أثبت له الهداية العامة: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

فأثبت الله رب العالمين له هداية ونفىٰ عنه هداية، المثبت سوىٰ المنفي، أثبت الله رب العالمين للنبي ﷺ هدايةَ الإرشاد، هداية الدَّلالة، هداية التوضيح؛ فيوضح لنا النبي ﷺ ويرشدنا ويبين لنا طريق الحق، ولكن لا أحد من الخلق يقدر علىٰ هداية القلب سوىٰ الله.

الله وحده هو الذي يملك هداية القلوب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

إذن أنت عندما تأخذ بالهداية العامة، جاءك الرسول وقال: هذا حقٌّ

وهذا باطل، هذا هُدىٰ وهذا ضلال، هذا نورٌ وهذه ظلمة، فعليك أن تلتزم، هذه هداية عامة، فأنت أخذت بطريق الحق، حينئذٍ تأتيك الهداية الخاصة من الله -تبارك وتعالىٰ-.

والمِثالُ المَضروب: أنك تنزل بلدًا أنت فيه غريب، وتريد أن تصل إلىٰ مكان بذاته معك عنوانه، ولكنك لأنك غريبٌ عن المكان لا تستطيع أن تصل إليه علىٰ نحوٍ مريح.

فأنت تذهب فتجد شُرَطيًّا مثلًا يقف هنالك لكي يقوم بمهمته؛ فتقول له: أنا أريد جزاكم الله خيرًا أن أصل إلىٰ هذا العنوان، فصفه لي.

فيقول لك: خض في هذا الطريق، ثم حِد إلىٰ اليمين ثم إلىٰ اليسار، ثم امض مستقيمًا إلىٰ الأمام، ثم إلىٰ اليمين فاليسار، ستجد المكان الذي تريد.

فتقول: جزاكم الله -تبارك وتعالىٰ- خيرًا، وبارك الله فيك، والله ما كنت أدري ما أفعل في هذا البلد وأنا غريبٌ عنه، لو أن الله -تبارك وتعالىٰ- لم يقدر لي أن أراك اليوم.

فحينئذٍ يقول: أعجبني أدبُك، وأعجبَني سَمتُك، وأعجبني ردُّك،

الطريق مخوف، وأنا أخشىٰ عليك منه أن تسير فيه وحيدًا وأنت غريب، وإذن فهات يدك، فيأخذ بيدك من أجل أن يمضي معك ليزلل لك عقبات الطريق، حتىٰ تصل إلىٰ المقصود، هذه هداية خاصة.

فأنت إذا أخذت بالهداية العامة، وعدت إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ حسب ما دلَّك وأرشدك إليه نبيك محمدﷺ، آتاك الله رب العالمين الهِداية الخاصة.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، لم يجاهدوا في الله رب العالمين حتىٰ يهتدوا، فهم مهتدون بدءًا، أخذوا بالهداية العامة، فجاهدوا في الله رب العالمين؛ فأتاهم الله رب العالمين الهداية الخاصة.

والذين جاهدوا فينا، لن يجاهدوا حتىٰ يهتدوا، أيجاهدون في الله رب العالمين وهم ضالون؟ هم مهتدون بدءًا، هدايةَ الدَّلالة، هداية الإرشاد، هداية الأخذ بما جاء به محمدﷺ.

آمنوا، صدَّقوا، اطمئنت قلوبُهم، استقرت أفئدتهم، استقامت علىٰ طريق الحق أقدامهم، شرعوا في التزام المنهج النبوي الذي جاء به خير البرية ﷺ، هداية عامة، أخذوا بِها وصدَّقوه فيما جاء به ﷺ، واتبعوه في نَهجه

وصراطه ﷺ.

حينئذٍ تتنزل الهداية الخاصة علىٰ قلوبهم حتىٰ تستقيمَ الأقدامُ علىٰ المنهج من غير ما ضلالٍ ولا زَيغ، حتىٰ يكون المُستقرُّ جنَّةَ الله -تبارك وتعالىٰ- في الآخرة.

إذن الإنسانُ ينبغي عَليه أن يفهَمَ أن الله -تبارك وتعالىٰ- له صفة العلم، وعلىٰ مقتضىٰ صفَة العلم -التي هي صفة انكشافٍ لله رب العالمين- كتب الله رب العالمين مقادير الأشياء قبل أن يخلق الله رب العالمين السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

كتب الله رب العالمين ما ستفعل أنت باختيارك، ما سيتَأتَّىٰ منك بمشيئتك وإرادَتِك واختيارك من غير جَبْرٍ في الفعل الذي يقَعُ مِنكَ.

وأمَّا الفعلُ الذي يبتليك بهِ، يقع فيك أو يقع عَليك؛ فإن الله رب العالمين لا يحاسبُك عليه؛ وإنما يحاسبُك علىٰ مقدماته إن كنت أنت الذي قد أخذت بالمقدِّمات التي تُؤدي إليه، وعلىٰ ردِّ فعلك علىٰ قدر الله رب العالمين فيك.

وأما الفِعل نَفسُه: فإن صبَرت علىٰ قَدَر الله رب العالمين فيك، فلك

المَثوبة ولكَ العُقبَىٰ -إن شاء الله رب العالمين- في الآخرة.

وأما الفعل الذي يقع منك؛ فإن الله رب العالمين جعل لك فيه حرية واختيارًا.

وإلا فإنك لو كنت مَجبورًا علىٰ الفعل جَبْرًا تامًّا بحيث إنك لا تستطيع أن تخرج عما قد كتب الله رب العالمين لك، مُجبِرًا إياك علىٰ فِعله في الذي وقع لك فيه اختيارٌ بِهدىٰ وضلال وإيمانٍ وكُفر؛ فإنه حينئذٍ -حاشاهُ سبحانه- يكون لك ظالمًا، والظلم مُتنزِّهٌ عنه ربنا -جل وعلا-، لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمونَ.

فكَتب الله رب العالمين مقادير الأشياء علىٰ مقتضىٰ العلم الذي هو صِفةُ الانكشَاف.

ثم إنَّ المَشيئة أن الله -تبارَك وتعَالىٰ- ما شاء كان، وما لم يشَأ لم يكُن، والله رب العالمين علىٰ كل شيءٍ قدير.

ثُم مَرتبة الخَلق بعد ذلك: وأن الله -تبارك وتعالىٰ- قد خَلقك، وخَلق الفعل الذي يقع مِنكَ، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- خَلق فيك الجوارحَ التي تُسيَّر علىٰ حَسب الاختيار، خَلقها فهي مخلوقةٌ له، وخلق فيها الطاقةَ

فهي مُسخَّرَة لك، مخلوقةٌ لله رب العالمين، وأما التوجِيهُ فإن الله ربَّ العالمين يحاسبُك عَليه.

خَلق الله رب العالمين اليدَ صالحةً لأن تقتُلَ وأن تَبطِشَ، وخَلق الله ربُّ العالمين اليد صالحةً لكي تجُودَ ولكي تَرحم، فإذا وَجَّهت اليد في الوجهة الأولىٰ كنتَ مُعاقبًا، وإذا وَجَّهت اليد في الوجهة الثانية كنتَ مُثابًا من الله رب العالمين، والله رب العالمين يُحاسبُك علىٰ هذا التَّوجيه.

فمسألة القضاء والقدر من المباحث التي دقت جدًّا، وهي من أيسر ما يكون علىٰ من يسره الله رب العالمين.

إذا فهمته علىٰ نحوٍ مستقيم؛ استقامت لك الحياة، واستقام لك منهج الحياة، وعرفت حينئذٍ مركزك في هذا الكون، وعلمت كيف أنت مكلفٌ من الله رب العالمين علىٰ النحو الصحيح.

وأما إذا لم تفهم مسألة القضاء والقدر علىٰ النحو الذي ينبغي أن يكون فهو وقوعٌ في إحدىٰ الفرقتين الضالتين الزائغتين: القدرية والجبرية.

فأمَّا القَدَرية: فإنهم يقولون: لا قَدَر، والأمر أُنُف، والله رب العالمين لا يعلم ما سيكون من الخلق في الحياة، يقولون: إن الله -تبارك وتعالىٰ- لا يعلم

ما سيكون من العباد في الأرض؛ فهؤلاء هم القدرية.

وأما الجبرية: فيقولون إن الإنسان مجبورون علىٰ أن يفعل ما قد كتب هنالك في اللوح المحفوظِ بحيث إنه لا مشيئة ولا اختيار.

حتىٰ إن واحدًا من أولئك الجبرية دخل يومًا فوجد رجلًا يفحش بامرأته، فلم يطق، فأخذ السيف -هو جبريٌّ وامرأته جبرية-، فأخذ السيف وهمَّ بالرجل أن يقتله، ففاته، فأقبل عليها يضربُها ويقول: يا فاسقة، يا فاعلة، تفعلين هذا وهذا، فقالت: يا فلان، ألا ترىٰ أن ذلك مكتوبٌ علينا في أمِّ الكتاب، أتترك السنة وتأخذ بمذهب ابن عباس؟ فقال: جزاك الله خيرًا يا هذه، كدت أضل.

فهؤلاء جبرية، وهؤلَاء قدرية، وأما أهل السنة فيميزون، ويعلمون ما هم فيه مختارون، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- كلفك، ولو كان الأمر مبنيًّا علىٰ الجبر ما كان للتكليف معنىٰ، وما كان لمَدح الطَّائع من مَعنىٰ.

لماذا يمدحه، وهو الذي كتب عليه أن يطيع حتىٰ إنَّ الطائِع المَجبور علىٰ الطاعةِ لا يستطيعُ أن يَعصي؟

ولماذا يكون حينئذٍ العاصي مذمومًا وهو مجبورٌ علىٰ أن يعصي ولا

يستطيع أن يخرج من قيد المعصية، فلماذا يُذم حينئذٍ؟

الذي لا يفهم باب القضاء والقدر وهو مبحثٌ طويل، ولكنه ماتعٌ ممتع، ممتعٌ جدًّا، إذا فهمتَهُ فهمتَ الدين وفهمتَ الحياة.

وأما الذي لا يفهم مبحث القضاء والقدر، علىٰ النحو الصحيح، لا يدري شيئًا، ولا يعيه، وإنما أهل السنة الذين يحققون هذا المبحث علىٰ النحو الصحيح هم الأناسيُّ حقًّا.

المعتقد الصحيح في الإيمان

فإنَّ المعتقد الصحيح في الإيمان عند أهل السنة والجماعة من الفرقة الناجية، التي ذكرها النبي ﷺ في حديثه -حديث الافتراق-، الذي ذكر فيه ﷺ أن هذه الأمة تفترق إلىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة.

والمعتقدُ الصَّحِيحُ في الإيمانِ عند أهل السنة: أن الإيمان قولٌ باللسان، بأن ينطق بشهادة التوحيد لا إلهَ إلا الله مُحمد رسُول اللهﷺ.

واعتقادٌ بالقلب، بأن يجزم جزمًا قاطعًا بصدق كلمة التوحيد.

وعمَلٌ بالجوارح.

فالإيمانُ عند أهل السنة: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: كان الإجماع من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قولٌ وعمل ونيةٌ، ولا يجزئ واحدٌ من الثلاثة إلا بالآخر. رواه اللالكائي في السنة.

الإيمان قولٌ وعملٌ ونية؛ فهو اعتقادٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

لا يكون الإيمان إيمانًا إلا إذا توافرت فيه هذه الأركان، فهذه هي التي تمثل حقيقةَ الإيمان عند أهل السنة.

فأما القول: فقول اللسان، وأما العمل: فالعمل بالأركان، وأما النية: فهي اعتقادٌ بالقلب.

ويزيد الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران:١٧٣].

من اعتقاد أهل السنة في الإيمان: أنه يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، زادتهم إيمانًا، فيزيد الإيمان بالطاعات، وينقص بالمعاصي وارتكاب السيئات.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾ [الأحزاب:٢٢].

وقال -جلت قدرته-: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح:٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [المدثر:٣١].

وقال -جلت قدرته-: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الفاتحة:١].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ وعظ النسَاءَ، وقالَ لهنَّ: «**مَا رأيتُ من نَاقصَاتِ عَقلٍ ودينٍ أذهبَ لِلُبِّ الرجُلِ الحَازِمِ مِن إحدَاكُنَّ**»[1]. فهذا دليلٌ علىٰ نُقصان الإيمَانِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).

ومثله قوله ﷺ: «**أَكْمَلُ المُؤمِنينَ إيمَانًا: أحسَنُهُم خُلُقًا**»[١]. رواه أحمدُ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذا كان من اتَّصف بالخلق الحَسَن، فهو أكملُ المؤمنين إيمانًا، فغيره ممن ساء خُلقُه أنقصُ إيمانًا.

الإيمان يزيد وينقص، هذا من الاعتقاد في الإيمان، اعتقاد أهل السنة والجماعة في الإيمان: أنه قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان، وأنه يزيد بالطاعات، وينقص باقترافِ السيئات، واجتراح الموبقاتِ.

وليس الإيمان قولًا وعملًا دون اعتقاد؛ لأن هذا إيمانُ المنافقين، فاعتقاد بالقلب ونية، كما قال الإمام الشافعي -رحمة الله عليه-: «الإيمانُ قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ»، فلابد من اعتقادِ القلب.

وأما المنافقون فإنهم كان يتأتىٰ منهم قولٌ وعمل، فمن المنافقين -الذين هم في الدَّرْك الأسفل من النار- مَن كان يصلي خلفَ النبي المختارِ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٥٤)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦٦٠).

ﷺ، كانوا يُصلُّون وراء النبي ﷺ، وهُم في الدَّرْك الأسفل من النارِ، لأن هَؤلاء أتوا بالقَول والعَمل، ولكن الاعتقاد الصحيح في القلب والنية في الفُؤاد لم تكن هُنالك في قلوبِهم.

قال ربُّنا -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

وليس الإيمَانُ هو مُجرَّد المَعرفة؛ فهذا إيمانُ الكافرين والجاحدين، قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

وقال -جلت قدرته-: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

فيُمكن أن يَعرفَ أن الله -تبارك وتعالىٰ- هو الواحدُ الأحد، الفَرد الصمد، وأنَّ محمدًا ﷺ هو رسولُ الله حقًّا وصِدقًا، ويعرف أن القرآن مُنزلٌ من عندِ الله -تبارك وتعالىٰ-، ومع ذلك هو من الكافرينَ؛ لأنه أتىٰ بكُفر الجُحودِ.

فهُو يَعلم ذلكَ يَقينًا في قَلبه ولكنه يَجحده: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ

أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

وكذلك قول ربنا -تبارك وتعالىٰ-: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

والله -تبارك وتعالىٰ- أخبَرنا في القُرآن العظيم أنه جعل لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين، والنبي ﷺ له في كل زمانٍ أعداءٌ من المجرمين.

من هم المجرمون أعداءُ النبي ﷺ في هذا العَصر؟

المجرمون أعداءُ النبي ﷺ في هذا العصر هم أروبا وأمريكا من الصَّليبيين والنَّصارَىٰ ومن شَايعهم من أولئك الذين جَحَدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظُلمًا وعلوًّا.

ويُخطئ كثيرًا من يظنُّ أن أولئك الذين يتهجمون علىٰ مقام النبي ﷺ لا يعرفونه، يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءَهم، يعرفون النبي ﷺ معرفة حقيقية، ويَعلمون البِشارات التي جاءت في كتبهم عنه ﷺ.

هذا الذئبُ الأغبَرُ العجوزُ الذي يشتُم النبي ﷺ دَرَس الفلسفة، ودَرَس اللاهوتَ أيضًا، وبحث في كتبه، وفي كُتب الأوائل، ولا يمكن أن

يُتصوَّر أنه لم يبحث في كتب الإسلام ولم يعرف الإسلام من مصادِره، لا يُمكن أن يتصور هذا.

هؤلاء يَحقدون علىٰ النبي ﷺ، مع أنَّهم يعرفون صدقه، ويعرفون أنه هو خاتم النبيين، وعندهم البشارات في كتبهم ناطقةٌ بصدق النبي ﷺ.

ولكن هذَا هو فِعلُ الكافرين الجَاحِدين: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

فليس الإيمانُ قَولًا وعملًا دون اعتقَاد؛ فلابد من القَول والعمل والاعتقَاد.

وليس هو مُجرد المعرفة المَحضة: أن يَعرف الإنسان أن النبي ﷺ هو المُرسَل من الله -تبارك وتعالىٰ- إلىٰ عموم الثقَلَينِ الإنس والجن، ولا أن يعرفَ أن القُرآن كتاب الله -تبارك وتعالىٰ- الخَاتم، ولا أن يعرفَ أن الله -تبارك وتعالىٰ- أرسل محمدًا ﷺ، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- يَنبغي أن يُعبَدَ.

كل ذلك يُمكن أن يعرفه الإنسان ولكنه يجحده، كما أخبر الله -

تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

وقال ربنا -جلَّت قُدرتُهُ-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

الضميرُ في (**يَعرفُونه**) عائدٌ علىٰ محمدٍ ﷺ، الذين آتينَاهم الكتابَ، أهل الكتاب وعلماؤهم والمحققون منهم في كتبهم، والذين ينظرون في تلك الكتب يعرفون مُحمدًا أكثر مما يعرفون أولادهم، ﷺ.

هذا كلام الله، ونحن نؤمن بكلام الله -تبارك وتعالىٰ-، وما دل عليه كلام الله -تبارك وتعالىٰ- إيمانًا كاملًا جازمًا حاسمًا لا يتخلَّف.

يقول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، ويعني بقوله: (**يَعرفُونه**) الضمير (يَعرفُونه) الضمير ضَمير النَّصب هنا (يعرفونه) عائدٌ علىٰ رسُول الله ﷺ، وأما ضَمير الرفع فيها فعائدٌ علىٰ أهل الكتاب، الذين آتيناهم الكتاب يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءَهم.

ومع ذلك، مع هذه المعرفة هم كفارٌ؛ لأنهم يَجحدون نبوةَ النبي ﷺ،

وقد استيقَنُوا بها في أنفسهم.

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩].

وقال -جلت قدرته-: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

فلَيس الإيمانُ مجردَ المعرفة، حذارِ من هذا، وإنما هُو اعتقادٌ بالقلب، ونطقٌ باللسان، وعملٌ بالأركانِ، فإذا تخلف واحدٌ من هذه الثلاثة، فالله المستعان وعليه التكلان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وليس هو قولًا واعتقادًا دون عمل؛ لأن الله رب العالمين الأعمال إيمانًا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: صلاتَكُم إلىٰ بيت المَقدس.

فإنهم لما صَلَّوا إلىٰ بيت المقدس ثم مات منهم من مات قبل تحويل القبلة، ثم أنزل الله رب العالمين الأمر بتحويل القِبلة، قال الأصحاب: ما بالُ صلاة إخواننا الذين صَلَّوا إلىٰ القبلة الأولىٰ، هؤلاء صلوا إلىٰ بيت المقدس،

والآن حُولت القبلة إلىٰ المسجد الحرام فما بال صلاتهم!

فأنزل الله رب العالمين قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم، فسمىٰ الله رب العالمين الصلاة إيمانًا.

وفي الصحيحينِ من حديث ابنِ عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، أنه قال لوَفد عَبد القَيس: «**آمُرُكُم بِأربَعٍ: الإيمَانِ بِاللهِ، هَل تَدرُونَ مَا الإيمَانُ باللهِ؟ شَهادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وإقَامُ الصَّلاةِ، -فهَذَا دَاخِلٌ في الإيمَانِ-، وإيتَاءُ الزَّكَاةِ، وصَومُ رَمضَانَ، وأَن تُعطُوا مِن المَغانِمِ الخُمُسَ**»[1].

فبيَّن النبي ﷺ أن هذه الأعمال داخلةٌ في مسمىٰ الإيمان، وهذا نصٌّ صحيحٌ متفقٌ علىٰ صحته، وهو صَريح أيضًا لا يحتاج تأويلًا ولا شرحًا.

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي هُريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الإيمَانُ بِضعٌ وسِتُّونَ، أَو بِضعٌ وسَبعُونَ شُعبَةً، فأفضَلُهَا قَولُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وأدنَاهَا إِمَاطَةُ الأذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، والحَياءُ شُعبَةٌ مِنَ الإيمَانِ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

فأدخل النبي ﷺ هذه الأعمَالَ في مُسمَّىٰ الإيمان، وجعلها شُعبًا في الإيمان، بل إنه ﷺ يقول: أدنَىٰ شُعب الإيمان إماطة الأذىٰ عن الطريق، ويقول النبيﷺ: «**والحَياءُ شُعبَةٌ مِن الإيمَانِ**»(١).

وليس شيءٌ من الأعمال تركه كفرٌ إلا الصلاة، إذا كان جُحودًا تكون كفرًا أكبر، وإذا كانت غير ذلك فإنها تكون كُفرًا لا يخرج من الملة، فمن تركها مُطلقًا فقد كفر، أجمع علىٰ ذلك صحابةُ رسول اللهﷺ.

قال عبد الله بن شقيقٍ: لم يكن أصحاب رسول اللهﷺ يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة. رواه الترمذي في جامعه، وهو حديث ثابتٌ صحيح.

وليكن معلومًا لكل مسلم مؤمنٍ موحِّدٍ: أن التكفير حقُّ الله، فلا يكفر أحدٌ أحدًا إلا من كفَّره الله ربُّ العالمين ورسولُه ﷺ، أو أجمع المسلمون علىٰ تكفيره.

التكفير حق الله -تبارك وتعالىٰ- وحده، ليس حقًّا لأحدٍ من البشر، فيكفر بالتشهي، ويكفر بالغرض، ويكفر بالهوىٰ، ويكفر بالخطأ.

---

(١) انظر ما سبق.

التكفير حق الله -تبارك وتعالىٰ- وحده؛ فلا يُكفِّر أحدٌ من المسلمين أحدًا إلا من كفَّره الله رب العالمين، أو كفَّرَه رسولُه الأمين ﷺ، أو أجمع المسلمونَ علىٰ كُفرِهِ.

فمن كفَّر أحدًا بغير الكفر الذي قام البُرهان الجليُّ عليه من نص الكتاب العزيز، أو السنة الصحيحة، أو الإجماع؛ فهو مستحقٌّ لتغليظِ العقوبة والتعزير؛ إذ «**مَن رَمَىٰ مُؤمِنًا بكُفْرٍ فَهُو كَقَتلِهِ**»[1]. رواه البخاري عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ، من رمىٰ مؤمنًا بكُفرٍ فهو كقتله، الذي يرمي المؤمن بالكفر كأنما قَتَلَه.

فالنبي ﷺ يُرهِّب ترهيبًا شديدًا من أن يطلق المرء لسانه في أمثال هذه الأمور، من كفر مؤمنًا بكفرٍ فهو كقتله.

وبيَّن لنا النبي ﷺ أن الرجل إذا قال لأخيه: يا كافر، فإن كان كما قال، وإلا حارت عليه، يعني: وإلا رجعت عليه، إن كان كما قال، يعني: إن كافرًا فذلك، وإن لم يكن كافرًا حارَت عَليه -يعني: رَجَعت عليه-.

فلا يُكفِّرُ أحدٌ أحدًا، إلا من كفره الله رب العالمين، أو كفره النبي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٧).

الأمين ﷺ، أو أجمَعَ علىٰ تَكفيره جموعُ المسلمين، يعني: انعقد الإجماع علىٰ كفره.

والكفر يقع بقولٍ كفريٍّ ليس فيه خلاف معتبَر، وكذَا بفعلٍ، وكذا باعتقَاد.

*** ولَيسَ مِن شَرطِ الكُفر: الاستحلَالُ.**

وفَرقٌ بين التكفيرِ العام، وتَكفير الشخص المُعيَّن: التكفير العام كالوعيد العام، يعني: مَن فَعَل كذا فقد كفر، هذا تكفيرٌ عام، من فعل كذا فقد كفر، ولكن فلان الذي فعل هذا الفعل هل يكفر كما يأتي التكفير العام، يعني: يتنزل عليه التكفير هكذا، أم لابد من توفر الشروط، وانتفاء الموانع، وإقامة الحجة الربانية الإلهية الرسولية النبوية مع النظر في مسألة العذر بالجهل؟

لابد مِن تَوفُّر الشروطِ وانتفاءِ المَوانع، ولابد من إقامة الحجة، والنظر فيما يسمىٰ بالعُذر بالجَهلِ.

وأما أن يُنزَّل التكفيرُ العام علىٰ المعينين من غير انتفاء الموانع وتوفر الشروط وإقامة الحجة؛ فهذا هو الضَّلال المُبين.

والذين يفعلون ذلك أشبَه ما يكونونَ بالخوارج، الذين كانوا يُكفِّرون بالمعصية، ويُخلِّدون في النار بالكبيرة، والذين خرجوا علىٰ جموع المسلمين، وكفَّروا أصحاب النبي الأمين ﷺ، بل وقتلوهم، حتىٰ قتلوا الخليفة الراشد علي بن أبي طالبٍ -رضوان الله عليه-.

فالذينَ يُكفِّرون هكذا أشبَه ما يكونون بالخَوارج الوَعيديَّة.

وأول مسألة من مسائل الأصول وقع فيها الافتراق بين أهل القبلة هي مسألة الوعيد، يعني: التَّكفير بالكَبيرَة.

ففرقٌ بين التكفير العام والتكفير المعين، من فعل كذا فقد كفر، هذا تكفيرٌ عام، تَنزيلُ هذا الحكم العام علىٰ المُعيَّن علىٰ شخص بعينه لابد فيه من توفر الشروط، وانتفاء الموانع، وإقامة الحجة، ومراعاة ما يسمىٰ بمَسألة العُذر بالجَهل، هذا كالوعيد العام.

يعني: من أكل مال اليتامىٰ ظلمًا فإنما يأكل في بطنه نارًا وسيصلىٰ سعيرًا، كما أخبر الله ربُّ العالمين في القرآن العظيم.

أخبَر الله -تبارك وتعالىٰ- من أكل أموال اليتامىٰ ظلمًا سيصلىٰ سعيرًا يعني: سيدخلُ النار، هذا وعيدٌ عام.

أمَّا فلان بعينه، الذي يأكل مال اليتيم، وأنت علىٰ يقينٍ من أنه يأكل مال اليتيم، أنت علىٰ يقينٍ من ذلك كما أنك علىٰ يقين من أنه دون الليلة البارحة، فأنت علىٰ يقين من هذا.

ولكن هذا وعيدٌ عام، عندما تريد أن تنزله علىٰ هذا الشخص بعينه، فإن دون ذلك خَرطُ القَتَاد، لماذا؟

لأنه ربَّما تاب قبل أن يموت، وردَّ المظالم، وربما أتته تلك التوبة النصوح، أو أتته مُصيبة مُكفِّرة، أو أتته حسنة عظيمة ماحية، كأن يموت شهيدًا في سبيل الله -تبارك وتعالىٰ-، أو مدافعًا عن دين الله رب العالمين، فلا تدري علىٰ أي شيءٍ يموت؟

فإذا نزلت الوعيد العام بأن من أكل أموال اليتامىٰ ظلمًا فسوف يَصلىٰ سعيرًا، يعني: سيدخل النار، فتأتي إلىٰ فلان من الناس الذي يأكل مال اليتيم، فلان من الناس، وأنت تعرفه يقينًا آكلًا لمال اليتامىٰ، تقول: فلان في النار، هذا وعيدٌ خاص، أنت نزَّلت الوعيد العام علىٰ فلانٍ بذاته، دون ذلك خَرطُ القَتاد كما يقولون، لماذا؟

لأنه ربما أتته توبة قبل أن يموت فردَّ المظالم، وربما أتته مصيبة

مكفرة، أو حسنة ماحية، أو شاء الله رب العالمين أن يغفر له، فهذا ليس لك أنت.

فالتكفيرُ العام كالوعيد العام، لا يجب أن يُنزل علىٰ المعينين إلا بالشروط، ولكن يجب القول بإطلاقه وعمومه، من فعل كذا فقد كفر، كما قال النبي ﷺ في حق أقوام يفعلون أشياءَ، فلابد من إطلاق ذلك.

يقول النبيُّ ﷺ في حقِّ من حلف بغير الله رب العالمين: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد أَشرَكَ**»(١)، وفي رِوايةٍ: «**فَقَد كَفَرَ**»(٢).

هذه إطلاقاتٌ عامَّةٌ، ولكن عندما نأتي إلىٰ فلانٍ بذاته، هذا كما يقول العلماء مما يسمىٰ بالكفر الأصغر، بالكُفر العَملي.

الذي يترك الصلاة، عندما يترك الصلاة يصدُق عليه الوصفُ بالكفر كما قال النبي ﷺ، هذا كما ترىٰ تكفيرٌ عام.

ولكن عند تنزيل هذا علىٰ المُعيَّنين، لابد من توافر الشروط، وانتفاء

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وصحح الألباني في صحيح الترغيب (٢٩٥٢).

(٢) انظر رواية الترمذي من التخريج السابق.

الموانع، وإقامة الحجة؛ فقد لا يكون جاحدًا، ولقد يُستتَابُ، فيعودُ بفضل الله -تبارك وتعالىٰ.

كقَول الأئمة: من قال: القرآنُ مخلوق؛ فهو كافر.

وكقول ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: من لم يقر بأن الله علىٰ عرشه قد استوىٰ فوق سبع سمواته؛ فهو كافرٌ حلالُ الدمِ، وكان ماله فيئًا.

هل كفَّروا الجهمية بأعيناهم؟

لم يحدث ذلك، مع أنهم حاربوا الأئمة، وتربصوا بهم بكل سبيل، ومات من مات من الأئمة مسجونًا كالبويطي -رحمة الله عليه-، أو مقتولًا كأحمد بن نصر الخُزاعي -رحمة الله عليه-.

وسُجن من سُجن، وضُرب من ضُرب كالإمام أحمد بن حنبل -رحمة الله عليه- إلىٰ غير هؤلاء من الأئمة الذين اُمتحنوا بالقول بخلق القرآن.

يقول العلماء -رحمة الله عليهم-: من قال: القرآن مخلوق؛ فهو كافر، هذا تكفيرٌ عام.

وأما عندما نُنزِّل هذا علىٰ فلانٍ بعينه، كالمأمون مثلًا، أو كالمعتصم، أو كالواثق، هل نقول: إن فلان هذا الذي يقول بأن القرآن مخلوق، ويدعو إلىٰ تلك البدعة المكفرة، ويحمل الناس عليها بالسيف، بحد السيف، ووقع السوط، ويمتحن الناس، حتىٰ إنَّها لتُعلم تلك العقيدة -بأن القرآن مخلوق- في الكتاتيب للصغار من الصبيان، هل هؤلاء بأعيانهم يُطلق عليهم أنهم كفار؟

لم يُكفِّرهم الإمام أحمد؛ لأن هؤلاء إنما غرهم علماؤهم ومُفتوهم، وكانوا جهلةً لا يَفقَهُون في دين الله -تبارك وتعالىٰ- كذلك، ولذلك عذرهم الأئمة، حتىٰ إن الإمام أحمدَ سامَحهم، وكان يرىٰ الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وكانوا يَدعو لهم، بل وجعلهم في حلٍّ -رحمة الله عليه-.

فأمثال هذه الأمور مما يدخل في مبحث الإيمان عند أهل السنة مهمة جدًّا؛ لأن التكفيريينَ استشرَوا في أرض الله -تبارك وتعالىٰ-، وضَجَّت بهم الطرق، لأنهم ضلوا في هذا المبحث من مباحث المعتقد الصحيح عند أهل السنة، فلم يقيدوه بقيوده، وإنما أطلقوا فيه إطلاقاتٍ أدت إلىٰ كثيرٍ من الخلل، وإلىٰ كثيرٍ من الضلال.

وأما أهلُ السنة فيقولون: تكفير الشخص المعين لابد فيه من توفر

الشروط، وانتفاءِ الموانع؛ فلا يلزم من التكفير المُطلَق العام تكفير الشخص المعين حتىٰ تتوفر فيه الشروطُ، وتنتفي عنه المَوانعُ.

فقد يكونُ جاهلًا، نشأ ببادية بعيدة فلا يدري ما أنكر مما هو معلومٌ من الدين بالضرورة، وإنكارُه كُفر.

فأمثال هذه الأشياء من الموانع، أو يكون متأولًا أمثال هذه الأمور من الموانع، وكذلك ما يتعلق بالجهل، وكذلك توفر الشروط، مثل هذه الأمور ينبغي أن تُراعىٰ عند تنزيل التكفير المطلق علىٰ المعينين.

إذن؛ اعتقادُ أهل السنة -رحمة الله عليهم- فيمَا يتعلق بمَبحث الإيمَان: هو أن اعتقاد أهل السنة في الإيمان: أنه قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان.

يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان الإجماع من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ومن أدركناهم، يعني: من أهل العلم، يقولون: الإيمان قولٌ وعملٌ ونية، ولا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر. رواه اللالكائي في السنة عنه -رضوان الله عليه-.

ويزيد الإيمان بالطاعة، وينقص الإيمان بالمعصية، كما دلنا ربنا -

جلت قدرته- في كثيرٍ من آيات القرآن العظيم.

والنبي ﷺ دلَّنا أيضًا علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص: «**ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين**»[(١)]. يعني: ما يصيب المرأة مما يعرض لها من أمر الحيض، فتظل الأيام والليالي لا تصلي فذلك من نقصان دينها، وشهادة المرأة علىٰ النصف من شهادة الرجل، فذلك نقصان عقلها، كما فسره الرسول ﷺ.

وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، فمن كان أحسنَ خلًقا؛ فقد فَضَلَك في الإيمان، إذا كان أعلىٰ منك خلقًا، فإنه يكون أعلىٰ منك إيمانًا؛ لأن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، كما قال الرسول ﷺ.

فالإيمان كما ترىٰ يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعصيات واقتراف السيئات.

وليس الإيمان قولًا وعملًا دون اعتقاد؛ فهذا إيمان المنافقين، يأتون بالقول والعمل، ولكن الاعتقاد متخلفٌ عندهم: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة:٨].

---

(١) تقدم تخريجه.

وكانوا يصلون خلف النبي الأمين ﷺ، ولكن في الدرك الأسفل من النار، وهم في النار تحت الكفار الأصليين؛ لأنهم يخادعون الله ورسوله ﷺ.

وأيضًا ليسَ الإيمانُ مُجرَّدَ المعرفة، أن يعرف الإنسان أن الله -تبارك وتعالىٰ- مستحقٌّ لألوان العبادة، ومع ذلك يصرفها لغير الله رب العالمين، أو يعرف أن محمدًا ﷺ رسول الله حقًّا وصدقًا، ولكن يعانده ويعلن الكفر به ﷺ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

ويقول الله -تبارك وتعالىٰ- في حق أولئك الجاحدين المعاندين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

يعرفون النبي ﷺ معرفتهم لأولادهم؛ لأنهم يعرفون شياة رسول الله، وحلية رسول الله، يعرفون صفة رسول الله ﷺ عندهم في التوراة والإنجيل، متأكدون هم من رسول الله ﷺ معرفة، كما أنهم متأكدون من أولادهم، لا يشتبه عليهم أولادهم ولو كانوا بين أولاد أهل الدنيا جميعها، يعرفون أولادهم، ويعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، كما أخبرنا الله رب العالمين.

فتعلم أن الإيمان ليس قولًا وعملًا دون اعتقاد، وأن الإيمان ليس هو

مجرد المعرفة، وأنه ليس قولًا واعتقادًا دون عمل، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- أدخل الصلاة في مسمىٰ الإيمان: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]، والنبيﷺ أدخل كثيرًا من الأعمال في مسمىٰ الإيمان.

فإذن ينبغي علينا أن نلتفت إلىٰ هذا الأصل من الأصول العظيمة من اعتقاد أهل السنة، وأن نحرره معرفة واعتقادًا وعملًا في دنيا الله رب العالمين.

ثم نعلم أنه ليس شيء من الأعمال تركه كفرٌ إلا الصلاة، كما أجمع علىٰ ذلك أصحاب رسول اللهﷺ.

من ترك الصلاة جحودًا بها فقد كفر كفرًا أكبر يخرج من الملة، صار مرتدًّا، من جحد الصلاة، وقال: إن الله -تبارك وتعالىٰ- لم يفرض الصلاة علىٰ الأمة، وأن الصلاة ليست بفرضٍ علىٰ أمة محمدٍ ﷺ، هو لا يصلي لأنه يجحد الصلاة.

أو يصلي وهو جاحدٌ للصلاة، يعني يقول: ما فرض الله رب العالمين الصلاة علىٰ الأمة، ولكن أنا أصلي ففيها تمرينات رياضية ماتعة، أو هي أجد فيها شيئًا يقرب من قلبي ويلمس روحي.

فلو صلىٰ وهو جاحدٌ في قلبه لفرضية الصلاة؛ فهو كافرٌ كفرًا أكبر

مرتدٌّ عن دين الإسلام العظيم -عياذًا بالله، ولياذًا بجنابه الرحيم-.

والمُرتَدُّ حُكمُه: أنه إن مات علىٰ ذلك فهو خالد مخلد في النار أبدًا، لا يخرج من النار أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وهنالك مثلٌ مضروب، لأن هذا مهم جدًّا ينبغي عليك أن تلحظه بعين الرعاية، لأن الله رب العالمين لو كُتب لعبدٍ أن يموت علىٰ غير الملة فتخبطَه الشيطانُ عند الموت، فخرج علىٰ غير قول لا إله إلا الله اعتقادًا ونطقًا، فدخل النار فهو خالدٌ مخلدٌ فيها أبدًا، نسأل الله العافية.

ولذلك كانَ من دُعاء النبي ﷺ: «**اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيطَانُ عِندَ المَوتِ**»(١).

والإمام أحمد -رحمة الله عليه- لما كان في سياق الاحتضار، وابنه عبد الله بجواره، يقول له: يَا أبتِ، قُل: لا إله إلا الله، كما هو أمر رسول الله ﷺ.

وبعضُ الناس يقول: لا تأمره بذلك؛ وهذا خطأ، يقول: لأنه يكونُ في

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٢).

غُصَصِ الموت وفي سَكَراته وفي معاناةِ سِياقة الموت، فلعلك لو قلت له آمرًا، قل: لا إله إلا الله، فإنه يرفُضُها، وحينئذٍ يكون قد أهلَكتَهُ.

ليس كذلك؛ بل إن النبيﷺ أمر بأن يُلقن المحتضر قَول: لا إله إلا الله، يَا فُلان: قُل لا إله إلا الله.

فقال الإمامُ ابن الإمامِ عبد الله بن الإمام أحمد لأبيه وهو يموت: يا أبت قل: لا إله إلا الله، فقال له: لا، بعدُ، يقول: يا أبت قل: لا إله إلا الله، يقول: لا، بعدُ، يا أبت: قل: لا إله إلا الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

سيخرج الإمام علىٰ غير الجَادَّة، وأخذه الكرب، يا أبت قل: لا إله إلا الله، يقول: لا، بعدُ، ثم أُغشي عليه، أخذه من الكَرب ما أخذَهُ.

فلما أفاق أبوه قال: يا أبت، أقول لك: قل: لا إله إلا الله، تقول لي: لا بعدُ! قال: يا بني والله ما كنت أخاطبك، وإنما هذا إبليس جاء فقعد منِّي مَزجرَ الكَلب، يَعضُّ علىٰ إبهامه ندمًا يقول: فُتَّنِي يا أحمدُ، فُتَّنِي يا أحمد، - يعني: خَرجت علىٰ السوية وعلىٰ الجادَّة-، فقلت له: لا، بعدُ. يعني: حتىٰ تخرجَ الروحُ.

ففي هذه اللحظة ما بين أن يخاطبه وهو يحشرج إلىٰ أن تخرج،

يخشىٰ أن يُفتن، اللهم ثبتنا عند الممات، نسألك الثبات عند الممات.

فالإنسان لو مات علىٰ غير الملة، تخبطه الشيطان عند الموت، كَفَر عند موته، هو الذي يكون في القَلب، هو الذي يخرج عند المَماتِ.

وقد حكىٰ من أحوال المحتضرين جملة غفيرة كثيرٌ من أئمتنا، منهم الإمام الكبير العلامة ابن القيم -رحمة الله عليه-، قال: كان رجلٌ مشغولًا بلعبة الشِّطْرَنْجِ في الحياة، فكان عند الموت يلقن، قل: لا إله إلا الله، يقول: كش مات، الرُّخ، والطابية، الوزير، والملك.

امتلأ قلبه بذلك، فما الذي يخرج منه؟ وكل إناءٍ بالذي فيه يَنضَحُ.

ورجلٌ كان مشغولًا بالدنيا، ويتجر بالقماش، فلما حضرته الوفاة جاءه من أهل الصلاح من يقول له: قل: لا إله إلا الله، يقول: الثوب الفلاني بكذا، لا تفرطوا فيه، والثوب الفلاني بكذا، لا تفرطوا فيه، حتىٰ قضىٰ.

فالإنسان لو مات علىٰ غير الملة، لو مات كافرًا، دخل النار خالدًا مخلدًا، ما معنىٰ أن يخلد في النار؟

المثل المضروب ندندن حوله طويلًا حتىٰ نعيه وعيًا كاملًا مستقرًّا في الوجدان، قال العلماء: تصور أن الأرض كتلةٌ مُصمتةٌ من الطين، لا شجر،

ولا حجر، ولا بناء، ولا نهر، ولا بحر، ولا شيء.

الأرض كتلة مصمتةٌ من الطين، وعلىٰ هذه الكتلة المصمتة من الطين، الذر الدقيق، يعني: النمل الصغير، لا الكبير، الصغير، نملة بجوار أختها، تصور الآن الأرض كتلة مصمتة من الطين، وقد امتلأت فلا فراغ فيها أبدًا، امتلأت بالنمل الصغير، لا بالنمل الكبير، تصور...تصورت؟! الله المستعان.

ثم تصور الآن أن طائرًا يأتي كل ألفَي سنة، لا كل ألف سَنة، بل كل ألفَي سنة، فيخطف من هذا النمل الصغيرِ نملةً، متىٰ ينتهي النمل من الأرض؟

كل أَلْفَي سنة يأتي طائرٌ يخطف من هذا النمل نملةً، لو تصورت أن يفنىٰ هذا النمل فإنه يفنىٰ قبل أن يفنىٰ أبد الآبدين، قبل أن يفنىٰ الخلود.

هو لا يفنىٰ، ولكن إن تصورت أن هذا النمل يفنىٰ فإنه يفنىٰ قبل أن يفنىٰ أبد الآبدين، فمن دخل النار فصار فيها مُخلدًا، من خرج من الدنيا كافرًا، فإنه يُخلَّد في النار، ما معنىٰ مخلد في النار؟ لا يخرج منها أبدًا، اللا نِهاية.

إذا تصورت أن يفنىٰ النمل من الأرض المصمتة، ونملة بجوار نملة،

ونملٌ صغيرٌ جدًّا، فإنه يفنىٰ هذا النمل، عندما يأتي الطائر كل ألفي سنة، يخطف نملة، يفنىٰ هذا النمل قبل أن يفنىٰ الخلود، قبل أن يفنىٰ أبد الآبدين.

فإذا قلت للمسلم: يا كافر، وحكمت عليه بأنه مرتد، يعني: دخل النار لا يخرج منها أبدًا.

شيءٌ آخر: بمجرد أن يكفر، فإنه تُطلَّق منه امرأتُه، وتَبينُ منه مباشرة، ثم إنه لا ولاية له تثبت، لا علىٰ ابنته يستطيع أن يزوجها، ولا أن يتحدث باسمها، ولا شيء.

وشيءٌ آخر: أنه إن مات لا يرثه أهله، ولا يرِث هو إن مات أهله منهم شيئًا؛ لأن الكافر لا يرث مسلمًا ولا يرث المسلمُ الكافرَ.

ثم إذا ما مَات، لا يلزمُنَا نحن المسلمين أن نغسله، ولا أن نكفنه، ولا أن نصلي عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

الذي يَجحد الصلاة، يقول: لا صلاة، لم يفرض الله الصلاة، كافرٌ كفرًا أكبر يخرج من الملة، فهو مرتدٌّ والعياذ بالله.

وأما الذي لا يُصلي تكاسلًا، أو تهاونًا، مع إقراره بفرضية الصلاة، فهذا كافرٌ كفرًا أصغر لا يخرج من الملة، ولكنه يطلق عليه لفظ الكَافر

ووصفه، وإن كان بعض أهل العلم كالشيخ ناصر -رحمة الله عليه- قال: لا أرىٰ أن يُطلق عليه.

ولكن كيف والنبي ﷺ هو الذي أطلقه؟

قال: لأن الاشتباه يقع، فلا يُفرِّق كثيرٌ من المسلمين حتىٰ من خواصهم بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، فيقع الاشتباه -رحمة الله عليه-، نظر بِدقة وحكمة، ولكن خير الهدي هدي محمد ﷺ.

إذن فمَسألة ترك الصلاة علىٰ هذا النحو، تركها جُحودًا كفرٌ أكبر يخرج من الملة، أمر عظيم جدًّا أن يكون تحتكَ امرأةٌ لا تصلي، هذه مصيبة، لأنها ستأتي يوم القيامة في رقبتك، ولربما أخذتك إلىٰ دَرْك هابطٍ في النار.

حتىٰ إن الإمام أحمد لما سُئل، فقيل له: ولكن المرأة نأمرها فلا تقبل الصلاة، قال: طلقها، لا خير فيها، لماذا تقتني هذه الملعونة، قال: طلقها؛ فإنه لا خير فيها، تصلي، إن لم تصل تُسرَّح.

والمرأة يكون عندها الرجل لا يصلي مصيبة كبيرة، وعليها أن تحتال حتىٰ يصلي، هذا أمرٌ لا هوادةَ فيها، ولا هَزَر فيه، ولا عبث فيه، هذا شعار الإسلام الأكبر.

ومع ذلك التكفير العام يُطلق هو حق الله -تبارك وتعالىٰ-، فيطلق، من فعل كذا فهو كافر، ولكن فلان بعينه، حذارِ؛ فهذا تكفيرٌ للمعين، تنزيلٌ للمطلق علىٰ فلانٍ بعينه، توفر شروط، انتفاء موانع، إقامة الحجة، انتفاء ما يُسمَّىٰ بالعذر نَنصُّ عليه مع أنه من انتفاء المَوَانع.

لأن كثيرًا يعبث بِهذا الأصل، العذر بالجهل، مع أنه من انتفاء الموانع، فإذا ما وجد الجهل فهو عذر، إذا قام بشُروطهِ، ولكن ننصُّ عليه دائمًا من باب ذكر الخَاص بعد العام؛ للدلالة عليه، ولأهميته؛ ولعبث العابثين به.

فأمثال هذه المسائل ينبغي أن تعرف، وأن تتيقن، وأن تُعلم، وأن يأتي بها المرء في حال الحياة.

❊ ❊ ❊

المعتقد الصحيح في حكم من وقع في الكبائر

* المُعتقَدُ الصحيحُ في حُكم من وقع في الكَبائِر:

الذي يرتكب الكبيرة، ما حكمه في دين الإسلام العظيم؟

الذي يتورط في كبيرة من كبائر الإثم: كالفاحشة، أو كقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أو غير ذلك من تلك الأشياء العظيمة التي ذكرها النبي ﷺ، ونصَّ الدين علىٰ أنه كبيرة من الكبائر.

ما هو معتقد أهل السنة والجماعة في الذي يقع في هذه الكبائر، نسأل الله العافية؟

جميعُ الذنوب سوىٰ الشرك بالله -تبارك وتعالىٰ- لا تُخرج المسلم من دين الإسلام إلا إن استحلَّها، جميع الذنوب لا يخرج بها المسلم من دين الإسلام.

يعني: أي ذنب يرتكبه العبد المسلم طالما أنه لم يستحله، يعني: لم يقل هذا حلال لم يحرمه الله، ولكن هو معتقد أنه ذنب، ويقع فيه.

إذا وقع المسلم في ذنب، أيَّ ذَنبٍ سوىٰ الشرك طالما أنه لم يستحِلَّه

لا يخرجُه وقوعه في ذلك الذنب مِن دائرةِ الإسلام.

هو مسلمٌ عاصٍ، مسلم مرتكب لكبيرة من كبائر الإثم، إن كان فيها حدٌّ يلزمه الحد، فإن لم يكن فيها حدٌّ فحسابه علىٰ الله -تبارك وتعالىٰ-.

أما أن يخرج إنسانٌ من دين الإسلام؛ فيكفَّر بذنبٍ أذنبه ما لم يستحله؛ فإن ذلك من علامات أهل البدع، من فعل ذلك فهو مبتدع، وهو يسير في ذلك علىٰ نهج الخوارج الذين يكفرون بالكبيرة، والذين يخلدون بالكبيرة في النار.

إن استحل الكبيرة، إذا وقع فيها إن استحلها فإنه يكون حينئذٍ مكذبًا لله ورسولهﷺ، يعني: يقول هي حلال، يعني: مثلًا يأكل الربا، فيقال له: الربا حرام، يقول: أعلم أن الربا حرام -سواءٌ وقع في الربا بشبهة، كأن يحله واحدٌ من أهل العلم مُخطئًا أو غير مُخطئ، فيكون خَلْفه-، وهنا لم يستحلَّ الربا، وإما أن يكون مجترئًا علىٰ ذلك وهو يعلم، يقول: هذا ذنبٌ وكبيرة، ولكني أفعله.

فهذا الذي يقع في الربا علىٰ هذا النحو، لم يستحلَّ الربا.

وأما إذا قال: إن الله لم يحرم الربا؛ هنا يكُون كافرًا؛ لأنه استحل ما

حرم الله رب العالمين، والذي يَستحِلُّ ما يحرم الله -تبارك وتعالىٰ- كأنما يُكذِّب الله رب العالمين.

وأما إذا ما وقع في الكبيرة من غير استِحلالٍ للكبيرة، فإن ذلك لا يُخرجه من دائرة الإسلام، إلا الشرك، فإن الذي يقع في الشرك الأكبر يخرج من دائرة الإسلام، نسأل الله أن يميتنا علىٰ الإسلام، إنه علىٰ كل شيءٍ قدير.

كل ما دون الشرك من الذنوب لا يُخلِّدُ صاحبَهُ في نار جهنم به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

فالله -تبارك وتعالىٰ- بيَّن لنا أن الشرك وحدَه هو الذي إذا أتىٰ به الإنسان، فإنه حينئذٍ يخلد في النار، وأما أي كبيرة من كبائر الإثم فإن العبد ما لم يستحل تلك الكبيرة فإنه لا يخرج من دين الإسلام، ولا يُخلَّد بمُواقعة تلك الكبيرة في النار.

نصَّت الآية علىٰ أن صاحبَ الذنوب إلىٰ مشيئة الله -تبارك وتعالىٰ-، إن شَاء تعالىٰ عفا عنه بمنِّه وكرمه، وإن شاء أدخلَه النار بقَدر ذَنبِه، ليُطهرَه من الذنوب، ثم يخرجه منها بتوحيده فيدخلهُ الجنة؛ لأنه مقيمٌ علىٰ أصل لا إلهَ إلا الله، فلمَاذا يَدخلُ النارَ؟

لأن الدُّور عندَ الله -تبارك وتعالىٰ- في الآخرة ثلاثُ دُورٍ: دَار الطيب المَحض، ودار الخَبيث المَحض، ودارُ الذين يُخلِّطون من المُوحدين.

فأما دار الخَبيث المَحض: فهي نار المُخلَّدين في النار، هي دار الكفار الأصليين الذين يُكذِّبون ويخرجون من المِلة قولًا واحدًا، فهؤلاء خالدون مخلدون في النار، هذه دار الخَبيث المحض والخبث المحض.

الله -تبارك وتعالىٰ- لا يُجاوره في الجنة إلا من كان طيبًا، فلا يدخل دار الطيب المحض إلا من كان طَيبًا.

دار الطيب المَحض هي الجنة، لا يُجاور الله -تبارك وتعالىٰ- في الجنة إلا من كان طيبًا محضًا، يعني: لا خَبَث فِيه.

المُخلِّط من أهل القبلة، يعني: الذي يرتكبُ الذنوبَ من أهل القبلة هذا مخلط فيه شوائب، فهذا ليس طيبًا محضًا وليس خبيثًا مَحضًا، فما حاله؟

يدخل نار الموحِّدين، ونارُ الموحدين لا يخلد فيها أحد، وإنما يدخل فيها الموحدون المُخلِّطون الذين عليهم الذنوب، يتطهرون، فإذا ما تطهروا في تلك النار، خرجوا فاغتسلوا في نَهرٍ هنالك يقال له نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حَميل السَّيل.

ثم إنهم يكونون من أجمل الخلق صورة، وعلىٰ جباههم مكتوب: هؤلاء هم الجَهنَّميون، ثم يدخلونَ الجنة بفَضل الله رب العالمين.

إذن صاحبُ الكبيرة: إمَّا أن يعفو الله -تبارك وتعالىٰ- عنه بمشيئته ورحمته، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألُونَ، وإما أن يعاقبه الله -تبارك وتعالىٰ- بقدر ذَنبه حتىٰ يُطهِّره.

سمَّىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- في كتابه بعض الكبائر كالقَتل والبَغي، وأثبت الإيمان لأصحابه؛ فقال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ ﴾.

فسمَّاه أخًا مع أنه قام بقَضية القتل، وأزهق النفس التي حرم الله -تبارك وتعالىٰ- إلا بالحق، وسمَّاه أخًا، فقال -جلت قدرته-: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ [البقرة:١٧٨].

فسماه أخًا، ولم يسلب عنه وصف الإيمان، أو وصف الإسلام، ولم يجعله كافرًا، مع أنه قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

فأثبت الإيمان للقاتل والمَقتول من المؤمنين، وأثبت لهم أخوة في الإيمان مع ما وقع بينهم من إراقة الدماء، ولا مُنافاة بين إطلاقِ الفِسقِ علىٰ العمل أو عامِلِه، وتَسمية العامل مسلمًا، وجَرَيان أحكام المسلمين عليه.

قصَّة الصحابي عبد الله، المُلقب حمارًا، كان يقال له: حمار، من أصحاب النبيﷺ، اسمه عبد الله، وكان يلقب بِهذا اللقب، ماذا كان يفعل هذا الصحابي؟

كان يشرب الخمر بعد التحريم، ويؤتىٰ به مخمورًا إلىٰ رسول الله، فيأمر النبيﷺ بإقامة الحد عليه.

قال عمر: فمنَّا الضاربُ بنَعله، ومنَّا الضارب بيده، ومنَّا الضارب بثَوبه، يقوم الأصحاب يضربونَهُ، يأتي به من يأتي وهو معاقرٌ للخمر، شاربٌ للخمر يهذِي؛ فيقام عليه الحد بين يَدَي النبيﷺ، ثم يُطلق فيذهب لكي يشرَبَ الخمر مرة أخرىٰ، ويؤتىٰ به ليقام عليه الحَدُّ، مرة، ومرة، ومرة، فتضايق الأصحاب، فقال بَعضُهم -رضوان الله عليهم-: لَعنَك الله، مَا أكثر مَا يُؤتَىٰ بِك!

فقال له النبي ﷺ: «**لا تَلعَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»(١)، مع هذا الذنب العظيم، قال: «**لا تَلعَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

وفي روية: «**لَا تُعِنِ الشَّيطَانَ عَلَىٰ أَخِيكَ**»(٢). فأثبت له أُخوَّة الإيمان، وقال: إنَّه يُحب اللهَ ورسُولَه.

لأن هذه المعصية إنما تأتي من غَلَبة النفس، لا تأتي من خللٍ في المنهج كما حدث مع الخَوارِج.

انظر إلىٰ الخوارج، يقول النبي ﷺ للأصحاب وهم أكمل البشر بعد الأنبياء والمرسلين، يقول النبي ﷺ للأصحاب: «**يَحقِرُ أَحَدُكُم** -يعني: يحتقر أحدكم- **صَلاتَه مَعَ صَلاتِهم، وصِيامَهُ مَع صِيامِهِم، وقِيامَهُ مَعَ قِيامِهِم، وتِلَاوتَهُ وقِراءَتَهُ مَعَ قِراءَتِهِم**»(٣).

يعني: يأتون من العبادة بشيءٍ فظيع، لا يستطيعه حتىٰ أصحاب النبي ﷺ، بل إن أصحاب النبي ﷺ ينظرونَ إلىٰ ذلك فيحتَقرون أعمَالَهُم كما قَال

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

النبي ﷺ.

ومع ذلك «**يَمرُقُونَ مِن الدِّينِ كَمَا يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[١]، كما تأتي بالسهم فتجعله في كبد القوس، ثم تُحكِم التصويب، فيمرُقُ السَّهم من بطن البقرة الوحشية إلىٰ الجهة المُقابلة، ينفذ من بطنها، الرمية يعني: المَرميَّة، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة.

سبحان الله! وأين العبادة، وأين القراءة، وأين الصلاة، وأين الصيام، وأين الذِّكرُ الذي هو فَوق الوَصفِ؟ كلُّ ذلك لم يُغنِهم شيئًا، هنالِكَ خَلَلٌ مَنهجي.

وأما هذا الخَلل عند هذا الصحابي الجليل -رضوان الله عليه-، فإن النبيﷺ يقول للصحابي الذي لعنه: «**لَا تَلعَنهُ؛ فَإنَّهُ يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ**»[٢].

ولعل الذِي لعنه لم يظفر بِهذِه الشهادة من رسول الله ﷺ، يعني الذي قال له: لعنك الله، ما أكثر ما يؤتىٰ بك؛ لَم يشهد له الرسول هذه الشهادة الصريحة: فإنه يحب الله ورسوله ﷺ.

---

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) تقدم تخريجه.

يَعني: لم يخرج من الإسلام بمجرد هذه الكبيرة، وهي مُعاقَرةُ الخَمر.

فإذا قيل: إن الإصرار علىٰ الخمر يخرج من الملة، يكون به العبد كافرًا. فهذا كلامٌ مُصادمٌ للنص الصحيح كما ترىٰ، وليس هو من اعتقاد أهل السنة، فهذا واضحٌ جدًّا كما ترىٰ.

بيانُ ذلك: أن كلًّا من الكفر، والشرك، والظلم، والفسوق، والنفاق، التفت إلىٰ هذا فهذا أصل عظيم جدًّا، تحتاجه في كثير جدًّا من الأمور.

إن كنتَ تريد أن تتعلم العلم الشرعي الصحيح في باب الاعتقاد، فتحكم ذلك، حتىٰ تلقىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ الصواب والسوية، وحتىٰ تسير -إن شاء الله تبارك وتعالىٰ- علىٰ الصراط كهيئة من قال فيهم النبيﷺ: «**كالبَرقِ الخَاطِفِ**»[1]، نسأل الله أن يَجعلنا منهم.

فالتَفت إلىٰ هَذا الأصلِ: الكفر، الشرك، الظلم، الفسوق، النفاق، جاءت في نصوص الشرع علىٰ قسمين: أكبر يُخرج من الملة؛ لأنه ينافي أصل الدين بالكلية، وأصغر لا يخرج من الملة؛ لأنه ينافي كمال الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٢).

وأما الأكبر: فيُنافِي أصل الإيمان، يصادم أصل الإيمان، يهدم أصل الإيمان، فهذا كفر أكبر، نفاق أكبر، فسوق أكبر.

هذه الأشياء منها أكبر وأصغر، وهذا مهم جدًّا من حيث الاعتقاد.

يعني النبي ﷺ يقولُ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اُؤْتُمِنَ خَانَ**»(١)، وفي روَاية: «**أَربَعٌ:... وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(٢).

فهذه الخِصال من خصَال النفاق، قد يكذب الرجل ففيه خصلة من خصال النفاق، ولكن هل يكون بذلك مُنافقًا النفاق الأكبر الذي قال فيه الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾؟

حاشىٰ وكلا، لا يكون ذلك حتىٰ يكون منافقًا نفاقًا أكبر، يعني: يكُونُ كافرًا باطنًا، مُظهِرًا للإيمان أو للإسلام ظاهرًا، كالمُنافقين علىٰ عهد الرسول ﷺ.

هُناكَ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا: إذَا قرأتَ في كتاب الله -تبارك وتعالىٰ- فاعلَم أنه كُلما ذُكر النفاق في كتاب الله -تبارك وتعالىٰ-، فالمقصود به النفاق

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

الأكبر، لا النفاق الأصغر.

يعني: ليس المقصود به الذي يعد فيخلف، أو الذي يحدث فيكذب، أو الذي يؤتمن فيخون، أو الذي يخاصم فيفجر، لا.

المَقصودُ بالنفاقِ في عُموم آياتِ القُرآنِ العَظيمِ عندَ ذِكرِ النفَاقِ فيهِ: هو النفاق الأكبر.

المُنافقُون الذين رتَّب النبيﷺ عليهم الأعمال العظيمة التي سوف تكون عليهم دائرةً يوم القيامة، والذين رتَّب القرآن العظيم جزاءهم في كتابه العظيم عند ذكرهم هم المنافقون نفاقًا أكبر.

كانوا يصلون خلف النبيﷺ، وهم يَكفُرونَ به، وهم يجتمعون معًا ليتحالفوا مع شياطينهم وشياطين الإنس من يهود وكفار قريش ضد رسول الله ﷺ.

فإذا رأيتَ الرجل يحدث فيكذب، أو يعد فيخلف، أو يؤتمن فيخون، أو غير ذلك من خصال النفاق من غير أن تَستَتِمَّ فيه خصال النفاق ليصير منافقًا نفاقًا أكبر يخرج من الملة.

إذا رأيت النص في القرآن يتكلَّم عن جزاء المنافقين وحساب

المنافقين يوم القيامة، وفي النار، فلا تُنزل ذلك علىٰ الذي ينافق نفاقًا أصغر، النفاق العملي، وهذا يحل لك إشكالًا كبيرًا جدًّا.

الرسول ﷺ وصف بَعض الذنوبِ بأنَّها شِرك وبأنها كُفر، فقال النبي ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ**»(١).

فلو قال رجل: ورحمة أبيه، أو: تربة خاله، أو: وعظمة سيده...إلىٰ غير ذلك، فحَلَف بغير الله، يترتب علىٰ ذلك خروجه من الملة؟ يعني: يرتد، يعني إذا مات يُخلَّد في النار لا يخرج منها أبدًا، مجرد أن يقسم هذا القسم، لو كان هذا القسم يكفر كفرًا أكبر، فبمجرد أن يأتي به كَفَر كُفرًا أكبر!

ثم تطلَّق منه زوجتُه، وإذا مات لا يرثُهُ أهله، وإذا مات أهله لا يرثُهُم هو، وإذا مات لا يلزَمُنا أن نُغسِّله، ولا نُكفنَه، ولا أن نصلي عليه، ولا ندفنه في مقابر المسلمين، وهو خالد في النار، لأنه قال: ورحمة جده، أو وتربة خاله، أو ورأس أبيه!

ليس كذلك، هذا في الغالب إنما هو من الكفر الأصغر، من الشرك الأصغر، يقال له: الشرك العملي، أو الكفر العملي، فتفرق بين هذا الأمر،

---

(١) تقدم تخريجه.

وهذا ، فإنها قاعدة عظيمة جدًّا.

والنبيﷺ بيَّن لنا ذلك في أحاديثه، من فعل كذا فقَد أشرك، فقد كفر، وفي رواية: فقَد أشرَكَ وكَفَر.

ويأتي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وكثير من الأصحاب ومن السلف يقولون: كُفر دون كُفر، ونفاقٌ دون نفاقٍ، وظلمٌ دون ظلمٍ.

ولذلك أحيانًا تجد في القرآن العظيم وَصفَ الظُّلم علىٰ أنه كُفر، ولذلك يقول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

فعندما نقرأ الآية نقولُ: الحمدُ لله الذي لم يَقُل: والظالمونَ هُم الكافرون، لم يقل الله -تبارك وتعالىٰ-: والظالمونَ هم الكافرون، لأنه مَن منَّا الذي لَم يظلم، يظلم نفسه ويظلم غيره؟ من منَّا الذي لا يتورط في الظلم؟ كلنا كذلك، نسأل الله أن يعفو عنا.

ولكن يقول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يقل -والحمد لله رب العالمين-: والظالمون هم الكافرون؛ وإلا كان الجميع من أهل الكفر، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٧]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٠].

سمىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- من دعا غيره كافرًا، ومشركًا، وظالمًا، فهذا هو الكفر الأكبر.

يعني: الإنسان إذا دعا غير الله -تبارك وتعالىٰ- لتفريج الكروب التي لا يقوىٰ علىٰ تفريجها إلا علام الغيوب، وستير العيوب، كما يقول الجهلة: يا حامي السويس يا غريب، من الذي يحمي السويس وغير السويس؟! الله.

أو يُطلب من مقبورٍ شيئًا، حيث إنه لا ينفع نفسه، ولا يضر نفسه، فكيف إذا طُلب منه أن يفعل ما لا يقوىٰ علىٰ فعله إلا الله رب العالمين؟!

النسوة الجاهلات يذهبن إلىٰ الأضرحة، حتىٰ ضريح الإمام الشافعي، ويلقين الأوراق داخل المقصورة.

وواحد من الصحفيين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف، استأذن إدارة مسجد الإمام الشافعي وأتوا إليه بتلك الأوراق، وأخرج كتابًا وضع فيه تلك الأوراق بعد تفريغها، فرَّغ ما فيها، يعني: يا سيدنا الإمام الشافعي المرأة لا تحمل، فنحن نرجو منك أن تتفضل عليها بأن تحمل!

والمرأة تقول: إنها لا تُنجب ذكورًا فيا سيدنا الإمام لو سمحت تفضل علينا وخليها تنجب ذكورًا! يكتبون ذلك.

فأتىٰ هذا الصحفي، وأتىٰ بتلك الأوراق وفرغها، وأخرج كتابًا بمجرد ما تراه أنت وأنت من طلاب العلم تشتريه، إذا رأيته اشتريته، كيف؟ كتب عليه: (رسائل الإمام الشافعي، رسائل لم تنشر من قبل).

لم تنشر من قبل! هي لم تنشر من قبل.

أمثال هذه الأشياء حتىٰ فيها نكات يقولها أهل الظرف.

المرأة التي ذهبت بسيارة من السيارات التي هي بقوة ستة سلندرات، عريضة جدًّا، في حارة شق الثعبان بالسيدة زينب، فلا يمكن أن تدخل هذه في حارة شق الثعبان، فوقفت بعيدًا عند الميدان، ونزل السائق وامرأةٌ في قمة سفورها وتبرجها.

فحمل الخروف علىٰ كتفيه، وحمل اللفافات في يديه، وأخذ يسأل عن الشيخ فلان حتىٰ ذهب إليه، فأعطاه ما كان هنالك، وأعطت المرأة الشيخَ كثيرًا من المال، وانصرفا، السائق والسيدة.

فأقبل أهل الحارة، خرجوا من الشق، من شق الثعبان، خرجوا جميعًا

إلىٰ الشيخ، ما هذا الذي حلَّ عليك، أتعرف أناسًا بهذه النظافة؟ كيف وأنت في بؤرة القذارة، كيف؟!

فقال: اربعوا عليَّ أيها الناس، أربعوا علىٰ أنفسكم؛ إن هذه المرأة جاءتني منذ عام، دلها رجلٌ علي لكي أصنع لها حجابًا، لأنها لا تُنجب، فجاءت تشكو، فكتبتُ لها الحجاب، وأعطت ما تيسر ومضت، والآن جاءت تقول: إنها قد رُزقت بغلام، وأن الحجاب قد آتىٰ أكله، وأثمر ثمرته، فأتت بهذه الهدايا، وبذلك المال.

قالوا: يا سيدنا الشيخ، وماذا كان مكتوبًا في الحجاب، ما الذي كتبته في الحجاب؟

قال: اعفوني من الإجابة.

قالوا: والله لابد أن تجيب.

قال: والله ما كتبت إلا: تخلفي ما تخلفي، الله لا يجعلك تخلفي!

وطويت لها ذلك، وخِطته في قطعة من قماش، وقلت لها: اجعليه تحت وسادة الأستاذ، يعني: الزوج، وسيحدثُ المطلوب، وقد حدث.

يُقصد غيرُ الله -تبارك وتعالىٰ- فيما لا يقوىٰ عليه إلا الله، هذا كفر يخرج من الملة، شرك أكبر تحبط به الأعمال، ويرتد به المسلم.

ولكن مَا أكثر هذه الجَهالة في أمثال هذه الأمور!!

«**سِبَابُ المُسلِمِ فُسُوقٌ وقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[١].

«**مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَو أَشْرَكَ**»[٢].

فهذَا في الكُفر الأصغر، والشرك الأصغر، والظلم الأصغر، والفسق الأصغر، وهذا يجتمع معه الإيمان كما نصَّ علىٰ ذلك الكتاب والسنة، وأجمعَ عليه سلفُ الأمة، وهو ينقص الإيمانَ.

فعلينا أن نتحرَّىٰ أمثال هذه الأشياء، ونجتهد في أن نراعي ذلك.

أنت لا تعرفُ أحيانًا بعض الأشياء، يعني يقال لك: فلان مثل عجل السيد، ما هو عجل السيد؟

هذا من السَّوائبِ التي حرَّمها الله رب العالمين، وكانت عند أهل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.

الجاهلية، الواحد منهم يقول: هذا العجلُ سَائبة للسيد، يعني: لا يقربه أحد حتىٰ يأتي مولد السيد من أجل أن يُذبح هنالك ويذهب.

وأنت خبير بأن السيد -كما هو معلومٌ في الفُلكلور الشَّعبي القديم والحديث- أن السيد يغفِرُ جميع الذنوبِ التي تقع في مولده، بداية من الزنا إلىٰ الشِّركِ الأكبَرِ.

فتُنصبُ -كما تعلم- الخيام، ويَختلط الرجالُ بالنساء، والله المستعان نسأل الله العافية والسلامة في الثلاثة الأيام، ولا حرجَ عليك فذَنبك مَغفور، افعَل ما شِئت، فذنبكَ مغفور، نسأل الله العافية والسلامة.

نُريد أن نصحِّح الاعتقاد؛ لأنه لن يصح لنا دين بغير صحة الاعتقاد، فإذا ضللنا علىٰ أمثال هذه الأوهام، والله سنظل في ذيل الأمم، وسنتخلف أكثر مما نحن عليه من التخلف، بما لا يعلمه إلا الله، لماذا؟ لأنه لابدَّ مِن تَحرير العَقل من الخُرافَة.

لما دخلت المعتقدات النصرانية علىٰ أروبا في العصور الوسطىٰ، فحجرت العقول، لم يصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه من التقدم العلمي حتىٰ تحررت العقول، كيف تحررت؟ طلَّقوا الدِّين جُملة؛ لأن الدين عندهم

يتعارض مع العلم الصحيح.

وأما عندنا نحن، فلا يمكن أن تُحصِّل علمًا صحيحًا إلا بِدينٍ صحيح.

وأما الدِّين الموهومُ الذي فيه هذا الغَبَش، التُّرهات التي عندنا جميعًا، وأن الإنسان منا أحيانًا يعتقد في أمور، هذه الأمور تُخرجه أطوارًا كثيرة من المِلَّة.

يعني أنت الآن تجد في كثير من سيارات عِليَةِ القوم، وفي مَكَاتبهم، وتجد عندهم في دورهم، وتجد عند كثير من الفلاحين علىٰ أبواب الدور كفًّا مُعلَّقة، هذه الكف المُعلَّقة ما هي؟

علمنا النبي ﷺ أنه لكي نخلص من الحسد أن نقرأ المعوذتين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:١-٥]، كم آية؟ خمس آيات.

فاختزلُوها، كيف اختزلُوهَا؟

بدلَ أن يقرأ سورة الفلق، إذا قلت له شيئًا خاف الحسد من ورائه، دفع في وجهك بالخمسة، ويقول لك: خمسة وخميسة في وجهك، أو في وجه الأبعد.

يعني: أيش خمسة وخِميسة؟

هي هذه، يعني الخمس آيات في سورة الفلق.

عصر السرعة، عصر الاختزال بالبرامج الكمبيوترية، اختزال سريع جدًّا، فبدل أن يقرأ الخمس آيات، يصنع هكذا.

ثم إنهم تكاسَلُوا عن هذا الصنيع، فصنعوا يدًا من تلك اللدائن البلاستيكية، وأخذوا يعلقونها، هذه اليد المعلقة كثير من المسلمين لا يدري السبب في تعليقها، يعني لماذا نُعلق كفًّا ولا نُعلق قَدَمًا مثلًا؟

أحيانًا يعلقون قدمًا، أو حذاءً، إلىٰ غير ذلك، ولكن هم يعلقون أمثال هذه الأشياء، هذه هي الخمس آيات: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

سبحان ربي العظيم! إلىٰ هذا الحد، نسأل الله أن يعفو عنا.

فالمعتقد الصحيح يُنقِّي فِكرَك، ويُصفِّي ذِهنَك، ويُطهر قلبك، ويُطلق

طاقاتك من عقالها، حتىٰ تسمو بها فوق السحاب إلىٰ أجواء الفضاء، بل إلىٰ عُليَا السموات عندما يسجُدُ القلب عند ساق العرش سَجدة لا يرفع منها إلا يوم القيامة.

* * *

المعتقد الصحيح في صحابة رسول الله ﷺ

فإن من مفردات اعتقاد أهل السنة في أصحاب النبي ﷺ: أمورًا ينبغي أن تُعلم؛ حتىٰ لا يُخالف اعتقاد أهل السنة في أصحاب رسول الله ﷺ.

ولابد أن يعرف المسلم قبل أن يتعلم ما ينبغي أن يعتقده في أصحاب النبي ﷺ، لابد أن يعرف ما هو الصحابي؟

والصحابي: هو كُلُّ من لَقي النبيَّ ﷺ مؤمنًا به، ومات علىٰ الإسلام هو من أصحاب رسول الله ﷺ.

فالذين لقوا النبي ﷺ ولم يؤمنوا به من المنافقين لا يُعدُّون من أصحاب النبي ﷺ حقيقةً.

والذي لقي النبي ﷺ مؤمنًا به، ثم مات علىٰ غير الملة -نسأل الله الثبات، ونسأل الله العافية- لا يُعد أيضًا من الصحابة.

فيدخل في ذلك: كل من لقي النبي ﷺ، وطالت مجالسته له أو قصرت، ومن روىٰ عن النبي ﷺ ومن لم يرو عنه، ومن غزىٰ مع النبي ﷺ ومن لم يغزو معه، ومن رآه رؤيةٍ ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارضٍ

كالعمىٰ، فهو من أصحابه أيضًا، إذا كان قد لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات علىٰ الإسلام.

ويخرج بقيد الإيمان: من لقيه كافرًا؛ فإن من لقي النبي ﷺ كافرًا لا يُعدُّ من أصحاب النبي ﷺ، ولو أسلم بعد ذلك، إذا لم يجتمع به مرةً أخرىٰ.

فلو أن رجلًا من الكفار لقي النبي ﷺ في حال كفره، ثم أسلم بعد ذلك ولم يَرَ النبي ﷺ، فإنه لا يُعدُّ من أصحاب رسول الله ﷺ.

فهذا تعريف الصحابي الذي ينبغي أن تراعىٰ فيه المفردات التي حددها أهل السنة في اعتقاد أهل السنة في أصحاب رسول الله ﷺ.

وأما عدد الصحابة: فقد قال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: توفِّي النبي ﷺ ومن رآه وسمع منه زيادة علىٰ مائة ألف إنسان من رجلٍ وامرأة، كلهم قد روىٰ عنه سماعًا أو رؤية.

فعدد الأصحاب -رضوان الله عليهم- عددٌ كبير كما ترىٰ؛ لأن النبي ﷺ توفِّي ومن رآه وسمعَ منه زيادة علىٰ مائة ألف إنسان من رجلٍ وامرأة، وكلُّهم قد روىٰ عنه ﷺ سماعًا، بمعنىٰ: أنه سمع من النبي ﷺ ما يرويه عنه، أو رؤية بمعنىٰ: أنه رأىٰ أمرًا من الأمور فحكاه، فهذا ما يُسمَّىٰ بالرواية عنه

رؤية ﷺ.

وقد أخرج الإمام أحمد بإسنادٍ صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمدٍ ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمدٍ ﷺ، فوجد قلوب أصحابه رضي الله عنهم خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ، يُقاتلُون عَلىٰ دينه.

فمِن عقائدِ أهل السُّنة والجَماعة: محبةُ أصحاب رسولِ الله ﷺ، وموالاتهم، والترضي عنهم، والاستغفار لهم، والثناء عليهم، ونشر محاسنهم، والكفُّ عن الكلام فيما شَجَر بينهم بعد موت نبيهم ﷺ.

وقد أثنىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ أصحَابِ نبيِّه -صلىٰ الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم-؛ فقال ربُّنا -جلَّت قدرته-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

لو تأمَّلت لوَجدتَ أن الله -تبارك وتعالىٰ- قد رَضي عن السَّابقين من

غير اشتراط إحسَان: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

فرضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من غير أن يشترط منهم الإحسان.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ فاشتَرطَ الإحسانَ في الذين يتبعونَهُم، فهذا دَلالة علىٰ مَقام أصحاب النبي -صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ورضي الله عنهم-.

رضي الله -تبارك وتعالىٰ- عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسَانٍ.

فلابد أن تكونَ من أتباع أصحاب النبي ﷺ بإحسان، ولم يشترط ربنا -تبارك وتعالىٰ- ذلك في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [البقرة:١٨]، كانوا تحت الشجرة ألفًا وأربعمِائة، أخبَرَ الله -تبارك وتعالىٰ- أنه قد رضي عنهم،

وأخبر النبي ﷺ أنه لا يدخُلُ أحدٌ منهم النَّارَ.

ففي الحديثِ الصَّحيح قال النبيُّ ﷺ: «**لَا يَدخُلُ النَّارَ أَحَدًا بَايَعَ تَحتَ الشَّجَرَةِ**»[1] من أصحَابِ رسُولِ الله ﷺ.

وقد وصَفَ الله -تبارك وتعالىٰ- المهاجرين بأنَّهُم الصَّادقون؛ فقال تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

فوَصَفهم اللهُ -تبارك وتعالىٰ- بأنَّهُم الصادقون، والله -تبارك وتعالىٰ- عليمٌ خبير، فإذا وصف الله -تبارك وتعالىٰ- المُهاجرين بهذا الوصف العظيم فذلك دلالة علىٰ أن ما كان في قلوبهم مما لا يطَّلعُ عليه إلا الله -تبارك وتعالىٰ- كان علىٰ هذا النحو الذي وصفه الله رب العالمين؛ فرضي الله -تبارك وتعالىٰ- عنهم.

ذكر الله -تبارك وتعالىٰ- المُهاجرين، ووَصَفهم بهذا الوصف العظيم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠).

وذكر الله -تبارك وتعالىٰ- الأنصار؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

فهذا وَصفُ أنصارِ رسولِ الله ﷺ علىٰ هذا النحوِ البَديع، الذي كانوا عَليه من الإيثارِ، ومن بَذَل المجهودَ إلىٰ أقصىٰ المَدىٰ؛ فرِضوانُ الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ الأصحابِ أجمعين.

ثم ذكر تعالىٰ حال المؤمِنين مِن بَعدِهم، من الذِين اتبعوهم بإحسانٍ، اتَّبعوا صحابة رسُولِ الله ﷺ بإحسانٍ.

ذكر الله رب العالمين المهاجرين، ووصفهم بأنهم الصادقون، ووصف الأنصار بهذه الأوصاف العظيمة من الإيثار وبذل المجهود، وأنهم لا يَجدُون في صُدورِهم حاجةً مما أُوتوا، ويؤثِرُون علىٰ أنفُسِهم ولو كان بِهم خَصَاصة.

هذه أوصافٌ عَظيمة جدًّا، لا يتحصَّلُ عليها إلا من خَلَّص اللهُ ربُّ العالمين قلبَه خالصًا مُخلصًا لوجهه الكريم.

ثم ذكَرَ حال المؤمنين من بَعدِهم من الذِين اتبعوهُم بإحسَانٍ؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

فقد أُمِروا أن يستغفروا لهم، فلَعَنُوهم، وكفَّروهم، أولئك الذين يدعون الانتماء إلىٰ علي -رضوان الله عليه- ويتشيعون لَهُ، وكذلك الخَوارج الذين كفَّروا الأصحابَ، أمر الله ربُّ العالمين من تبع الأصحاب بإحسانٍ أن يَستغفِرُوا لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، أُمروا بأن يستغفروا لهم؛ فلعنوهم وكَفَّروهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ

فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح:٢٩].

فهؤلاء يُحبون أصحابَ محمدٍ ﷺ، إذا كانوا علىٰ المعتقد الصحيح.

وأما الذين في قلوبِهم غلٌّ وبَغضَاء لأصحاب النبي ﷺ، فلا شك أن هؤلاء تصيبهم الآية، كما قال الإمام مالك -رحمة الله عليه- في حكم من أبغض الصحابة: من وجد في قلبه بغضًا لواحد من أصحاب محمدٍ ﷺ أصابته الآية، في أي شيءٍ تصيبُهُ؟

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أصبح من الناس في قلبه غيظٌ علىٰ أحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، -وتأمل في قوله: علىٰ أحد من أصحاب رسول الله، ليس علىٰ جملة، ولا علىٰ كلهم، وإنما علىٰ أحد، ولو كان واحدًا ممن ثبتت له الصحبة من أصحاب رسول الله ﷺ-.

من أصبح من الناس في قلبه غيظٌ علىٰ أحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فقد أصابته الآية.

ماذا يريد أن يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الإمام العظيم، إمام دار الهجرة، ماذا يريد أن يقول؟

هو يشير إلىٰ قول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾.

فمن أصبح في قلبه غيظٌ علىٰ واحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ أصابته الآية: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾.

ولم يصرح بكفره -رحمة الله عليه-؛ لأنه إمامٌ متثبت يدري ما يخرج من رأسِهِ، ولكنه أشارَ إلىٰ الآيةِ، وأومأ إلىٰ ما هُنالِكَ من المعنىٰ في قول ربنا -جلت قدرته-: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾.

فمن كان في قَلبه غيظٌ علىٰ واحد من أصحاب النبي -صلىٰ الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم- أصابَته الآيةُ كما قال الإمام مالك -رحمة الله عليه-.

وقال تعالىٰ في الصحابة مُبيِّنًا فضيلة من أنفق من قبل الفتح وقاتل، وهو الفتح المعنِي هاهنا صلح الحديبية، وقاتل في سبيل الله رب العالمين من

بعد ما أنفق في سبيل الله رب العالمين ما وجد، وكانوا في حالة ضيقٍ وعُسرة، لا يملكون إلا أقل من القليل.

والله -تبارك وتعالىٰ- بيَّن فَضْل الذين قاتلوا من قبل الفتح وأنفقوا، وكذلك الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا، بين الله -تبارك وتعالىٰ- فضل هؤلاء وهؤلاء، ووعد الله -تبارك وتعالىٰ- إياهم بالجنة فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠].

فلم يسوِّ الله -تبارك وتعالىٰ- بين الذين أنفقوا من قبل صلح الحديبية وأنفقوا في سبيل الله -تبارك وتعالىٰ-، والذين قاتَلُوا من بعد صُلح الحديبية وأنفقوا في سبيل الله -تبارك وتعالىٰ-.

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أصحَابِي** -وفي لفظٍ لمُسلم: **لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِن أصحَابِي**-؛ **فَلَو أَنَّ أَحَدًا أَنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ**»(١).

والمد: هو ملء الكفين، والنصيف: نصف ذلك، يعني: ملء الكف

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

الواحد.

لو أن الواحد من الأصحاب -رضوان الله عليهم- ممن تقدم إسلامهم وتقدم جهادهم أنفق ملء كفٍّ واحدة، ولو مِن رَديء التَّمر.

الذينَ جاءوا من بعد من الأصحاب أنفسهم لو أنفق الواحد منهم مثل أُحدٍ ذهبًا، ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَهُ.

فلو أنفق واحدٌ من الأصحاب المتقدمين ملء كفٍ واحدة، ولو من رديء التمر من الدَّقل، أنفقه في سبيل الله -تبارك وتعالىٰ-، وجاء الأصحاب في نفس الرتبة رتبة الصحبة لرسول الله ﷺ، فجاء من جاء بعدهم، ثم أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا، ما بلغ مِقدَار ما بلغ هذا بالثَّوَاب عند الله -تبارك وتعالىٰ- والأجر العظيم.

فكيف بالذِين لم تَثبُت لَهم رُتبةُ الصُّحبَةِ؟

كيف يَجتَرِئ أحدٌ علىٰ واحد من أصحاب رسول الله ﷺ؟

وأنت عليم بأن كتب التاريخ التي تَتَربَّىٰ عليها الأجيال تصف عمرو بن العاص -رضوان الله عليه-، وتصف معاوية بن أبي سفيان، وتصف أبا سفيان، وتصف هندَ أم مُعاوية، وتصف أبا موسىٰ الأشعري، تصف هؤلاء

فيما يسمىٰ بقصة التحكيم، تَصفُهم بأوصافٍ قَبيحةٍ جدًّا.

حتىٰ إنَّ رجلًا من أولئك الذين يشتغلون بذلك الشيءِ المَرذُول الذِي يُسمَّىٰ بالفَن يقولُ: إنه لم يَجد شَخصية في التاريخ جَميعه، عَلىٰ مَدَار التاريخ وامتدادِهِ هي أحَط وأخَس من شخصية عَمرِو بنِ العَاصِ!

مع أن هذا المِسكينَ الذي ينتمي إلىٰ هذه الأرض التي نحيا عليها، إن كان مسلمًا، فإن جميلَ عمرو، واليد التي لعمرو عنده في رقبته تتوقه لا يستطيع أن يتحلل منها أبدًا إلا إذا كَفَر.

وما مِن مسلمٍ يسجد لله رب العالمين سجدة من أهل مصر منذ الفتح الإسلامي إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، إلا ومثل ثواب ما يأتي به من الخَير فِي إسلامه علىٰ امتدَادِهِ، كل ذلك في مِيزان حسنَاتِ عمرِو بن العاصِ -رضوان الله عليه-.

فهؤلاءِ يُؤمرونَ بأن يَستغفرُوا للأصحاب -رضوان الله عليهم-، فيتَهجَّمُون عليهم، ويسيئون الأدب معهم، بل ويكفِّرونَهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

النبي ﷺ لمَّا وقع شجارٌ عند دخول مكة في يوم الفتح، بين عبد الرحمن

ابن عوف وخالد بن الوليد ﷺ، وقع بينهم شيء، لأن خالدًا -رضوان الله عليه- أعمل السيف شيئًا عند الدخول، وأما عبد الرحمن فكان ينهاه، فوقع بينهما شيء.

فأغلظ خالدٌ لعبد الرحمن في الكلام، وأتىٰ بقول شديد، ونُقل ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال لخَالد: «**يَا خَالِدُ، دَعْ أصحَابِي**، -وخَالدٌ من أصحَابه-، **فَلَو أَنفَقَ أحَدُكُم مِثلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ**»(١).

لأن الذين يجاهدون في أحوال العُسرَة والشِّدَّة، الذينَ يَدعُون إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- في أوساطٍ مُنحَلَّةٍ، الذين يبذُلُون عندَ الفَقر والقِلَّة، الذينَ يَجتهدُون مُجاهدين في سبيل الله رب العالمين عند وقوعِ المَذَلَّةِ، هؤلاء لهُم أجرٌ عَظيمٌ جِدًّا أكبر بكَثيرٍ جدًّا ممن يأتي بعدَهُم ممَّن يَجدُ الطريقَ مُمَهَّدًا.

ويدل علىٰ ذلك هذا الذي نحكيه من أمرِ الأصحاب -رضوان الله عليهم-، وأمرٌ آخر معروفٌ للجميع بفَضلِ الله رب العالمين، وهو قول النبي ﷺ كما في صحيح مسلمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**عِبَادَةٌ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٨).

عبادةٌ في الهَرج عند اختلاط الأمور، وعند تميع المفاهيم، وعند انحلال القيم، وعند انفلات الناس من أسر الفضيلة، عبادة في الهرج كهجرة إلي، كأنك تهاجر إلىٰ رسول الله، ﷺ.

وقالُوا: الهَرج هو أن يَستَشرِيَ القَتلُ بينَ الناس، وقالُوا: إنمَا هي الفِتن التي تقع بين المُسلمينَ.

ولا شكَّ أن القتل إنما هو ناتج عن الفتن، فتؤول المسألة إلىٰ وقوع الفتن بين المسلمين، وهذه الفتن التي تقع بين المسلمين واقعة، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فعبادة في الهرج كهجرة إلىٰ رسول الله ﷺ.

في الصَّحيحين عن عِمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**خَيرُ النَّاسِ قَرنِي، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم**»[1].

قال عِمرَانُ: لا أدري أذَكَر بعد قرنِهِ قرنَين أو ثلاثٍ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرنِي، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم**»، أم تَوقَّف عِندَ ذِكرِ قَرنَينِ بَعدَ قَرنِهِ ﷺ؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

وهذَا من الاحتياط عند الأصحاب في نقل ما ورد عن رسول الله ﷺ، لا يأخذون الأمور بالظن؛ وإنما باليقين، لا يدري ذكر قرنين أو ثلاثة، وحينئذٍ يتوقف ويقول علىٰ الشك، يقول: فلا أدري.

ثم قالَ: «**ثُمَّ إنَّ بَعدَهُم قَومًا** -يَعنِي: بَعدَ هذِهِ القُرونِ ذَات الخَيريَّة، بعدَ القُرونِ المُفضَّلةِ يأتِي أقوامٌ-، **يَشهَدُونَ وَلَا يُستَشْهَدُونَ، ويَخُونُونَ ولَا يُؤتَمَنُونَ، ويَنذِرُونَ ولَا يُوفُونَ، ويَظهُرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**»(١).

وأما أصحابُ رسول الله ﷺ، فكانوا في جملتهم علىٰ غير هذه الصفة، لم يظهر فيهم السمن، وإنما ظهر السمن في المسلمين بعد القرون الثلاثة المفضلة، كما ذكر النبي ﷺ.

عمر -رضوان الله عليه- مع تماسُكِ بُنيانِهِ، ومع اشتدادِ أسرِهِ -رضوان الله عليه- بتماسُك عظامِهِ وهَيكلِهِ -رضوان الله عليه-، كان يجري يعدو بجوار الفرس، والفرس في شدة حضره، يعني: في شدة عدوه، وهو يجري بجوار الفرس يمسك بأذنيه، ثم يركب ظهره يَمتَطيهِ من غير سَرجٍ -رضوان الله عليه-.

---

(١) التخريج السابق نفسه.

فالصحابة -رضوان الله عليهم- لم يكُونوا علىٰ تلك الصفةِ المَرذولةِ التي ذكرها النبيﷺ فيمن يأتي بعدَهُم.

وكل ذلك من أجل أنهم كانوا يأخذون بالجهاد في سبيل الله رب العالمين، وأنهم كانوا كثيري العبادة لله رب العالمين، فلم يكن في الواحد منهم من مُزعةٍ من لحمٍ زائدٍ ولا شَحم، وكذلك كان الرسُول ﷺ.

وفي الصحيحين عن أنسٍ رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**آيَةُ الإيمَانِ: حُبُّ الأنصَارِ، وآيَةُ النِّفَاقِ: بُغضُ الأنصَارِ**»[1].

فالإنسانُ إذَا أراد أن يعرفَ أمُؤمنٌ هو أم لا، فعليه أن يُفتِّش في قَلبِه، هل يُحبُّ الأنصار؟ أو هو مبغضٌ للأنصار؟

والحقيقة: أن كثيرًا من المسلمين لا يدرون من هم الأنصار، لا يعرفون من هم الأنصار، حتىٰ يحبونهم أو يبغضونَهُم.

هؤلاء أراحوا أنفسهم جملةً، فلا يُحبون ولا يبغضون؛ لأنهم لا يعرفون من هم الأنصار، والنبيﷺ دلَّنا علىٰ كثيرٍ من أمثال هذه الأشياء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤).

هذا أبو هريرة -رضوان الله عليه-، جعل النبيﷺ حب أبي هريرة وحبَّ أُم أبي هريرة علامة علىٰ الإيمان، كيف؟

كانت أمُّ أبِي هُريرة -كما في الصحيح- تَشتُم النبيﷺ شتمًا قبيحًا، كانت كافرة، وكان أبو هريرة قد شرحَ الله رب العالمين صدرَهُ للإسلام، ومُلازمًا للنبيﷺ، وأمه يحبها ويرجو لها السلامة والنجاة من النار، ولكنها كانت مولعة بأن تشتم رسول اللهﷺ.

فشتَمت النبيﷺ يومًا شَتمًا قَبيحًا، وذهب أبو هريرة إلىٰ رسول اللهﷺ يبكي، فقال: «**مَا يُبكِيكَ يَا أبَا هُرَيرَةَ؟**» قالَ: يَا رسُولَ الله، إنَّ أُمِّي قد وَقعَ مِنها أمرٌ عَظيمٌ، مَا هو؟ قال: إنَّها قَد سبَّتك سبًّا قبيحًا يَا رسُولَ اللهِ.

فقالَ النبيﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ أمَّ أبِي هُريرَةَ**»[1].

رَجع أبي هريرة فوجد الباب مُجافًا، يعني: مُواربًا، وسمع خضخضةَ الماء بالداخل، ذهب ليدخل، قالت: مكانَك؛ لأنَّها كانت تغتسل.

فلما أن فرغت من غُسلها، ووضعت عليها ثيابَها، دخل عليها وشعرها ينطف بالماء، فقالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله وأن

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩١).

محمدًا رسول الله.

فرجع بها يبكي، ذهب في المرة الأولىٰ يبكي، ورجع في المرة الثانية يبكي؛ فالأولىٰ ذهب يبكي حزنًا، وفي الثانية ذهب يبكي فرحًا، ما بك يا أبا هريرة؟ قال: آمنتْ يا رسول الله، أسلمتْ يا رسول الله، استجاب الله دُعاءَكَ يا رسول الله ﷺ.

فدعا اللهَ ربَّ العالمين بأن يُحبِّب أبا هريرة وأمَّ أبي هريرة لكل مؤمنٍ.

فاللهم اشهد أنِّي أُحبُّ أبا هريرة، وأحبُّ أم أبي هريرة رضي الله عنهما.

فهذه الأشياء التي وقعت لأصحاب النبي ﷺ، وجعلها النبي ﷺ علامات فارقة علىٰ الإيمان مثل حُب الأنصار، ينبغي أن تحرره، وأن تعرف من هم الأنصار، وماذا صنعوا، كما وصفهم العلي الجبار في إيثارهم، وفي إيوائهم لإخوانِهم.

حتىٰ إنهم في بداية الأمر عندما كان النبي ﷺ قد آخىٰ بين المهاجرين والأنصار كان الأنصاري يأتي للمهاجري بنصف المال، أو بماله كله، ويقول له: اقسِمْ هذا المال بيننا نصفَينِ.

هذهِ الدُّورُ -لو كان له أكثر من دار- اختَر منهَا ما تشَاء.

هؤلاء هم النسوةُ -لو كانَ عندَه امرأتانِ-، يقُول: انظُر إلىٰ هاتَين -قبل الحِجاب هذا بالطَّبع-، فيقول: انظُر إلىٰ هَاتَين، بعد الهِجرة مُباشرة، انظر إلىٰ هَاتَين، فأيتهُمَا أعجبتك فدُلَّنِي عليها حتىٰ أُطلِّقَهَا، فإذا انقَضَتِ العِدَّة تَزوجها.

إلىٰ هذه الدرجة كان الأنصار -رضوان الله عليهم- يحبون من هاجر إليهم، ومن آوىٰ لَدَيهم من أصحَاب رسول الله ﷺ.

النبيﷺ يقولُ: «**لَا يُحبُّ الأنصَارَ إلَّا مُؤمِنٌ، ولَا يُبغِضُهُم إلَّا مُنافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُم أحَبَّهُ اللهُ، ومَنْ أبغَضَهُم أبغَضَهُ اللهُ**»(١).

وفي صَحيحِ مُسلمٍ عَن أبي هُريرَةَ ﷺ، من حَديث أبي سَعيد ﷺ، أن النبيَّﷺ قال: «**لا يُبغضُ الأنصَارَ رَجُلٌ آمَنَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ**»(٢).

وفي الصَّحيحين من حديث عليٍّ ﷺ أن النبيﷺ في قصة حاطب بن أبي بَلتعة: «**إنَّهُ قَد شَهِدَ بَدرًا، وَمَا يُدرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلَىٰ أهْلِ بَدرٍ فقَالَ:**

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥).
(٢) أخرجه مسلم (٧٧).

اعمَلُوا مَا شِئتُم فَقَد غَفَرتُ لَكُم»[1].

وقِصةُ حاطبٍ معروفة، وذلك أنه لما أراد النبي ﷺ أن يفتح مكة، وكان النبيﷺ حريصًا علىٰ ألا يتسرب الخبر إلىٰ قريش حتىٰ لا تُعد العدة فتقع المعركة.

كان يريد النبيﷺ أن يفاجئهم، وأن يُباغتَهم، حتىٰ لا يقع قتالٌ تُراقُ بسببه الدماءُ؛ لأن الأمر فيه حساسية شديدة جدًّا، لو أنه وقع قتالٌ عند دخول مكة، فقُتل من قريشٍ أحدٌ أو كثيرُ أحدٍ فإن الدماء التي تسيل لربما تظل عالقة بالأذهان.

ولكن كان النبيﷺ يريد أن يدخل مكة دخولًا رفيقًا، إلا أن حاطبًا - رضوان الله عليه- لم يكُن من قُريش صليبة، ولكن كان مُلْصقًا بهم، وكان هنالك من أهله ومن ماله ومتعلقاته ما هُنالك، فأراد أن يتخذ عند قريشٍ يدًا.

فكان منه أمرٌ عَجيبٌ جدًّا يسمىٰ في العُرف الحاضر القانوني العسكري السياسي الحاضر بالخيانة العظمىٰ؛ لأنه كتب كتابًا يعلم أهل مكة بمسير رسول اللهﷺ بالجَيش إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

هذا إفشاءُ سرٍّ عسكريٍّ كبير جدًّا، وهذا يؤدي إلىٰ استعداد قريش وإلىٰ وقوع مقتلة كبيرة جدًّا من جانب أصحاب رسول الله ﷺ، ومن جانب القريشين أنفسهم، فيفوتُ الغرض الذي أراده الرسول ﷺ، هذا يسمىٰ بالخيانة العظمىٰ.

فأرسل خطابًا وجعله مع ظَعينة علىٰ هَوْدج، فضفرت عليه ضفيرتها، وركبت ناقتها أو جملها ومضت، وجاء جبريل إلىٰ النبي ﷺ فأعلمه.

فاستدعىٰ النبي ﷺ بعضَ أصحابه ومنهم علي -رضوان الله عليه-، وقال: «**اذهَبُوا إلَىٰ مَكانٍ يُقَالُ لَهُ: رَوضَةُ خَاخٍ، سَتَجِدُونَ ظَعِينَةً معَهَا كِتَابٌ، فَأتُونِي بالكِتَابِ**»(١).

فأَدرَكُوا المَرأةَ فِي ذَاتِ المَوطِنِ الذِي وَصَفَهُ النبيُّ ﷺ، فقَالَ لَهَا عَليٌّ: أَخرِجِي الكتَابَ، قالت: ما مَعي مِن كتَابٍ، قالَ: واللهِ مَا كَذَبتُ ولَا كُذِبتُ، لتُخرِجنَّ الكِتابَ أَو لأنزِعَنَّ الثيَابَ.

فلما رأت الجد في صوته وهيئته، قالت: فتوارىٰ عني، فتوارىٰ عنها، فحلَّت ضفيرتها وأخرجت الكتاب.

---

(١) التخريج السابق نفسه.

فرجع به إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما قُرئ الكتاب بمحضرٍ من الأصحاب -رضوان الله عليهم-، وفيهم عُمر الفاروق -رضوان الله عليه-، كان وقعه شديدًا جدًّا، «**مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟!**»[1].

فقال: والله يا رسول الله ما كفرت بعد أن آمنت، ولكنِّي كنتُ رجلًا غريبًا مُلصَقًا فيهم، ولي قرابة ولي أهلٌ ولي مال، فأردت أن أصطنع عندهم يدًا.

فقال عمر: يا رسول الله، مُرني فلأضرب عنق هذا المنافق.

يفشي مثل هذا السر للأعداء، هذا كبيرٌ جدًّا.

فردَّ عَليهم النبي ﷺ بقولِهِ: «**إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، ومَا يُدرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعمَلُوا مَا شِئتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[2].

فانظر إلىٰ جلال أصحاب رسول الله في مشاهدهم، وكيف أن الحسنات الكبيرة تلتَهِمُ تلكَ السيئاتِ ولو كانت كبيرةً.

وكيف أنه لما قدَّم تلك اليد العظيمة بشهوده بدرًا مع نبيه ﷺ في يوم

---

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) التخريج السابق نفسه.

الفرقان يوم التقىٰ الجمعان، وكان منه بذلٌ وعطاءٌ لله رب العالمين يرجو أن يكون في الشهداء، لمَّا كان ذلك منه علىٰ هذا النحو، قال له ربه -جل وعلا- فيمن قال لمن شهد بدرًا وكانوا من الصادقين، من المخلِصين المخلَصين: اعمَلوا مَا شئتم؛ فقد غفرتُ لكم.

أصحابُ النبيﷺ مشهدٌ واحد منهم مع النبيﷺ بعمل العامِلين لو عمِلُوا منذ ولادتِهم إلىٰ يوم الدِّين ولا يوفيهم ذلك عند الله، كما قال الرسول ﷺ.

جبلُ أحدٍ هذا صخوره نارية، يعني: صخوره لا مسام فيها، ليست من الصخور الرسوبية، ولا من الصخور التحولية، وإنما هي صخورٌ نارية، فهي ثقيلة جدًّا، فإذا حَملت حجرًا ملء الكف مثلًا فِهْرًا، تجد ثقله في يدك، صُخور نارية.

وهذا الجبلُ ممتدٌ إلىٰ مسافة بعيدة جدًّا، وكذلك يعلو علوًّا متوسطًا، ومعلومٌ أن الجبل الذي تراه منه ظاهرًا له جذرٌ في الأرض يبلغ ضعفي ما تراه وربما أكثر في هذا الذي تراه العينُ.

يقول النبيﷺ لو أن واحدًا من الأصحاب الذين تأخروا ولم يكونوا من السابقين الأولين من أصحابه -رضوان الله عليهم أجمعين-، لو أنفق

مثل أحدٍ ذهبًا، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه، ولو كان من تمرٍ رديءٍ.

أصحاب النبيﷺ شهدوا معه المشاهد، حتىٰ إن واحدًا من التابعين يقول لحذيفة بن اليمان: يا حذيفة، شهدتم رسول اللهﷺ وعِشتُم مَعهُ؟

فقال له: نعم يا بنَ أخِي.

قال: وما صَنعتم؟

قال: كنَّا مَعهُ في السَّراءِ والضَّراءِ.

قال: وتركتُموه يمشي علىٰ الأرض، والله لو كنا معه ما تركناه يمشي علىٰ الأرض، ولحمَلناهُ علىٰ رُءوسنا.

كلام! كما تجد مثلًا الرجل الآن، يقول لك: لو أن الله -تبارك وتعالىٰ- جعلني في عصر النبي ﷺ لكنت مكان أبي بكر.

ومن أدراك؛ لعلكَ كنت مكان أبي جهلٍ!

احتمالان متساويان، ممكن أن يكون مكان أبي بكر، وممكن أن يكون مكان أبي جهل، ومن أدراك؟ اسأل الله العافية.

فقال: يا بنَ أخي، لا تقُل هذا، والله لقد رأيتنا في يوم الأحزاب، والأمر كما وصف الله رب العالمين: زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنون، كما وصف الله رب العالمين، في شدة البرد، وفي شدة الريح.

والنبي ﷺ يقول: «**مَن رَجُلٌ يَذهَبُ إِلَىٰ القَومِ فَيَأتِينِي بِخَبَرِهِم ولَا يُحدِثُ شَيئًا، يَكُونُ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ**»(١).

قال: والله ما قام منا أحد، فكرَّرها النبيﷺ مرة أخرىٰ، قال: فَوالله ما قامَ مِنا أحدٌ، فأعادها ثالثة فمَا قام منا أحدٌ.

مع أنك لو تأمَّلتَ في البشارة تجد الأمر فيه السلامة، يعني: من يأتيني بخبر القوم؟ هو يضمن لك أن تعودَ، النبي ﷺ في كلامه يضمن لك أن تعودَ.

ولكنهم كانوا في شدة من الجوع، ومن التعب، ومن السهر، ومن الخوف، ومن النصَب، كما وصف الله رب العالمين، وكان الواحد منهم لا يستطيع أن يذهب ليبول إلا بإذنٍ مِن الرسول ﷺ.

فقال: يا بن أخي، لا تقل هذا، لقد رأيتُنِي وعن أصحاب في يوم

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٨).

الخندق..وقد حدث كذا، وكذا.

قال: فلما لم يقم أحدٌ، قال: «**أينَ حُذَيفَةُ؟**».

قال: فلم يكن بدٌّ من أن أقومَ، ووالله لَولا أنه عَيَّنَنِي ما قُمتُ، فقُمتُ، فقلت: لبيك يا رسول الله.

قال: «**اذْهَبْ إلَىٰ القَومِ فَأتِنِي بخَبَرِهِم، وَلَا تُحدِثْ شَيئًا حَتَّىٰ تَرجِعَ إلَيَّ**»[1].

قال: قلتُ: سَمعًا وطاعة يا رسُولَ الله.

قال: فنزلت الخندق، فوالله ما هو إلا أن تحركت حتىٰ كأنِّي فِي ديماسٍ، ذهب الخوف، ذهب البرد، أتىٰ الأمن وأتىٰ ما هنالك من كل طمأنينة يمكن أن تنزل بالقلب والجسد والروح، وذهب -رضوان الله عليه-.

فكان في وسط القوم، جاءت الريح عصفت، كما وصف الله -تبارك وتعالىٰ- وهي من جُند ربك، فقلعت خيامهم، وأطفأت نارهم، وقلبت قدورهم.

---

(١) التخريج السابق نفسه.

قال أبو سفيان: لينظر كلٌّ منكم جليسَه، حتىٰ لا يتسرب إليهم المسلمون في الظلماء وفي شدة الريح وفي عصفها مع البرد والظلمة، فيُعملون فيهم السيف.

بالحنكة العسكرية عند أبي سفيان، يقول: لينظر كلٌّ منكم جليسه في الظلمة.

لم ينتظر حذيفة -رضوان الله عليه-، وإنما أخذ بالمبادرة، فأمسك بمعصم جليسه، وقال: من أنت؟ يعني: تكلم حذيفة كأنه صاحب بيت، من أنت؟ فقال: أنا فلان، لما وجد جَرأتَهُ لم يسأله: ومن أنت؟

قال: والله لقد كان أبا سفيان مني علىٰ مرمىٰ السهم، ولو شئت أن أجعله بين كتفيه لفعلت، ولكني تذكرت وصية رسول اللهﷺ: لا تُحدث شيئًا حتىٰ ترجع إليَّ.

فعلمت عِلْم القوم، ثم رجعت إلىٰ النبيﷺ، والله ما هو إلا أن نزلت الخندق حتىٰ عاد البرد وعاد الخَوف.

قال: فجئتُ إلىٰ النبي ﷺ وإذا هو يصلي في مِرْطٍ لبعض نسائه ﷺ، قال: فأدخلني في شيءٍ منه، حتىٰ فرغ من الصلاة، فأخبَرت النبيﷺ بخبري.

هؤلاء الأصحاب بذلوا وضحوا، وأقام الله -تبارك وتعالىٰ- بِهم هذا الدين العظيم.

تجد حتىٰ من الشباب من هؤلاء الأصحاب في موقعة بدر، في قتل أبي جهلٍ -عليه لعَائن الله-، وواحد من هؤلاء الشباب تُضرب يده من عند مفصل الكتف، فتُطَن حتىٰ لا يبقىٰ منها إلا شيء متعلقٌ بجلدة هنالك، ففقد السيطرة عليها تمامًا، إذ إن العظم قد فُصل من العظم، وما هنالك من اللحم كذلك إلا جلدة ظلت اليد معلقة تروح وتجيء وهي مُعلقة بتلك الجلدة.

هذا الصحابي الشاب -رضوان الله عليه- وجد أن ذلك سيعوقه، أين الألم؟ لا يحسه، أين النزيف؟ لا يَجده.

أين النوازع البشرية في الأسىٰ علىٰ عضوٍ يُفقد بهذه الصورة المريعة المروعة التي فيها من حدَّة الألم ما فيها؟

لا يلتفت بشيءٍ من ذلك، ولكنه يلتفت لشيءٍ أكبر من ذلك، وهو أن هذه اليد ستعوقه، فماذا يصنع؟ يضعها تحت قدمه أو تحت ركبته ثم يتمطىٰ فيفصلها ويدخل المعركة.

بشرٌ هؤلاءِ!!

من يكونون؟!

أصحاب النبي المأمون ﷺ.

فالنبي ﷺ كما في صحيح مسلمٍ عن جابر، قال: أخبرتني أم مبشرٍ أنها سمعت النبي ﷺ يقول عندَ حفصَةَ رضي الله عنها: «**لَا يَدخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدُ الذِينَ بَايَعُوا تَحتَهَا**»(١).

وكان عددهم أكثر من ألفٍ وأربعمائة من جملتهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، مع أن عثمان الذي بايع عنه رسول الله ﷺ.

النبي ﷺ بعثه إلىٰ قريش مُفاوضًا فاحتجزوه، وكانوا يحبونه، فخشي النبي ﷺ أن يكون قد أصابه سوء، فبايع الأصحاب مُصافحةً تحت الشجرة، عثمان ليس حاضرًا، فوضع النبي ﷺ يديه إحداهما في الأخرىٰ، ثم قال: «**وهَذِهِ عَن عُثمَانَ**»(٢)، يعني: يَدي هذهِ عن يدِ عُثمانَ، فكانت يدُ النبي العَدنان ﷺ خيرًا لعثمان من يد عثمان لعثمان رضي الله عنه.

لا يدخل أحدٌ منهم النار، وكانوا أكثر من ألفٍ وأربعمائة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢)

ويَعتقدُ أهلَ السُّنَّةِ: أن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ: أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، هذا إجماعٌ من الصحابة والتابعين لم يختلف فيه أحدٌ منهم، أبو بكر وعمر -رضوان الله عليهم-.

وقد تواتر النقلُ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر وعمر.

عليٌّ الذي يؤلهه الشيعة في جملة منهم، والذي يتشيع له من يتشيع من أولئك الروافض الذين كتب لهم الخميني ما كتب من ذلك الوِردِ القَذرِ، الذي يدُورون حول الكعبة، وليسوا بطَائفين بها، وإنما يدورون عبثًا، وفيه لعنٌ لأبي بكرٍ وعمر.

والذي تواتر عن عليٍّ -رضوان الله عليه-، يعني: ثبت قطعًا بما لا يقبل الشك أبدًا أنه قال: إن خير هذه الأمة بعد النبي ﷺ: أبو بكر وعمر.

ومع ذلك يأتي أمثال هؤلاء فيطوفون، يدورون بالبيت الحرام، بالكعبة المشرفة، والواحد منهم يقول يزعم أنه يتقرب بذلك إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ-: اللهم العن جِبتي قريش، وطاغوتَي قريش، وصنمَي قريش، اللذين بدلا دينك، وحرَّفا كتابك، والعن ابنتيهما، يعني: عائشة وحفصة -رضوان

الله عليهم أجمعين-.

وهذا عليٌّ -رضوان الله عليه- يتواتر النقل عنه أن خَيرَ هذه الأمة بعد النبي ﷺ: أبو بكر وعمر.

ويُثلِّث أهل السنة بعثمان بن عفان، ويُرِّبعون بعلي بن أبي طالب -رضي الله تبارك وتعالىٰ عنهم أجمعين-.

فهذا جملة من معتقد أهل السنة في أصحاب رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم، ورض الله عنهم-.

المعتقد الصحيح في أهل بيت الرسول ﷺ

المعتقد الصحيح في آل بيت النبي ﷺ:

من عقائد أهل السنة والجماعة: محبة أهل بيت النبي ﷺ، ومعرفة فضلهم، وشرفهم.

عملًا بوصية النبي ﷺ يوم غَدِير خُمّ، حيث حمد الله تعالىٰ، وأثنىٰ عليه، ووعظَ وذَكَّر، ثم قال: «**أَمَّا بَعدُ، أَلَا أَيُّها النَّاسُ فإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَن يَأتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيب، وأَنَا تَارِكٌ فِيكُم ثَقَلَينِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ فِيهِ الهُدَىٰ وَالنُّورِ؛ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ واستَمسِكُوا بِهِ**»[1].

فحَثَّ عَلىٰ كتاب الله ورغَّب فيه، ثُم قال: «**وَأَهْلُ بَيتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهلِ بَيتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيتِي**»[2].

وهَذا حديثٌ صحيحٌ أخرجه مسلمٌ في صَحيحه عن زيد بن أرقَمَ -رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه-.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) التخريج السابق نفسه.

قالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفسِيرِهِ: ولَا نُنكِرُ الوَصاة بأهلِ البيت، يعني: الوصية التي وصَّىٰ النبي ﷺ الأمةَ بِها في أهل بيته، وأمَرَ بالإحسَان إلَيهم، واحتِرامِهم، وإكرَامِهم.

فإنَّهم من ذريةٍ طاهرة، من أشرف بيتٍ وجد علىٰ وجه الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفُهُم، كالعباس وبَنيه، وعليٍّ وأهل بيته وذُريته -رضي الله عنهم أجمعين-.

فوصَّانا النبي ﷺ بالإحسان إلىٰ أهل البيت، واحترامهم، وإكرامهم؛ لأنَّهم ينتمون بسببٍ وثيقٍ إلىٰ النبي ﷺ، ولاسيما إذا كانوا مُتَّبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية.

ومن أهل بيته ﷺ: أزواجُهُ.

قال تعالىٰ في سياق مخاطبتهن: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا

خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣-٣٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسيره**: هذه الآية نصٌّ في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنَّهن سبب نزول الآية، وسبب نزول الآية داخلٌ فيه قولًا واحدًا، إما وحده علىٰ قول، أو مع غيره علىٰ الصحيح.

فدخل في هذه الآيةِ: أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، والحسن والحسين -رضي الله عنهم أجمعين-.

لحديث عائشة رضي الله عنها -فيما أخرجه مسلم-، قالت: خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مِرْطٌ مُرحَّل من شَعرٍ أسود، فجاء الحسنُ بن عليٍّ فأدخله، يعني: في ذلك المرط، ثم جاء الحُسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

وصانا الله -تبارك وتعالىٰ- بآل البيت عندما ذكر أنه أذهب عنهم الرجس، وأنه طهَّرهم تطهيرًا.

ففي ذلك إيماءٌ إلىٰ وجوب محبتهم واحترامهم وإكرامهم.

ووصانا النبي ﷺ بذلك صراحةً، وأخبرنا ﷺ أن آل البيت هم ثاني الثقلين، كما قال ﷺ: «**وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَولُهُمَا كِتابُ اللهِ فِيهِ الهُدَىٰ والنُّورِ، فَخُذُوا بكِتَابِ اللهِ واستَمسِكُوا بِهِ**»[1] فحثَّ علىٰ كتاب الله ورغَّب فيه.

ثم قال: «**وأَهلُ بَيتِي، أُذكِّرُكُم اللهَ فِي أهلِ بَيتِي، أُذكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهلِ بَيتِي، أُذكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهلِ بَيتِي**»[2].

والنبي ﷺ عندما يذكرنا اللهَ -تبارك وتعالىٰ- في آل البيت، لا يَدْعُونا فقط إلىٰ محبتِهم واحتِرامهم وإكرامِهم وتَعزيرهم وتوقيرهم، وإنما يدعونا أيضًا إلىٰ عدم الغلو فيهم.

لأنه إذا كان ﷺ يُذَكِّرُنا الله فيهم؛ فمعنىٰ ذلك: أنه ينبغي علينا أن نلتزم قانون الله -تبارك وتعالىٰ- في آلِ البيت.

فإن الذين يَجفُون عن آل البيت لا يُفلحون، وأما الذين يُغالُون في آلِ البَيت فهم من المُشركين حتمًا؛ لأن هؤلاء إنما يذهبون في هذا الأمر مَذاهبَ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

لا يرضاها الدين أبدًا، بل ولا يرضاها النبيُّ ﷺ، بل ولا يرضاها أهلُ البيت أنفُسُهم -رضوان الله عليهم أجمعين-.

وليسَ مِن احترامِ وتَوقيرِ آلِ البَيتِ: أن يُخالَف نبيُّنا ﷺ في أمرهم وفي شأنهم، بل ينبغي أن نُطيع الرسولَ ﷺ في آل بيته، كما ينبغي أن نطيع الرسول ﷺ فيما سوىٰ ذلك من أمور الدين.

وهل يرضىٰ آل البيت -رضوان الله عليهم- أن يُخالَف رسولُ الله ﷺ فيهم؟!

إن النبي ﷺ في مرض الموت وقبل أن يثقله، وكان يعاني ما يعاني من المرض ومن السكرات وهو داخلٌ عليه، وكان علىٰ وجهه خَميلة أو قَطيفة، فكان يرفعها ويقول: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ والنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**»[1]، يُحذِّرُ ما صَنَعوا.

فالنبي ﷺ من آخر وصاياه لهذه الأمة: ألا تفعل كما فعلت الأمةُ الضالة من قبلها، ولا الأمةُ الغضبية من قبلها؛ وإنما ينبغي علىٰ هذه الأمة أن تكون أمة مُوحِّدة، وأن تجعل الأمر في نصابه كما جاء به النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

فليسَ مِن مَحبَّة آلِ البَيتِ: أن يغالي المرء في آل البيت، ولا أن يُنزلهم فوق منازلهم؛ فإن ذلك مُفضٍ إلىٰ كثيرٍ من الشرك، وهو واقعٌ في هذه الأمة، نسأل الله -تبارك وتعالىٰ- أن يعفو عنا وعن المسلمين أجمعين.

* * *

الاعتقاد الصحيح في كرامات الأولياء

وأمَّا المُعتقَد الصَّحيح في كَراماتِ الأولياءِ: فإن أهل السنة والجماعة تواترت عندهم النصوص بوقوع كراماتِ الله تعالىٰ لأوليائه الصالحين.

والوَلِيُّ عندَ أهلِ السُّنة: مَن فَعَل المأمورات الشرعية، واجتنَبَ ما جاءت الشريعةُ بالنهي عنه، فهذا هو الوَليُّ.

قال تعالىٰ عن الأولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

فكل مؤمنٍ تقي هو لله ولي؛ فأولياء الله -تبارك وتعالىٰ- هم الذين يفعلون المأمورات الشرعية، ويجتنبون ما جاءت الشريعة بالنهي عنه، وقد عرفهم الله -تبارك وتعالىٰ- في هذه الآية العظيمة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

فكل مؤمنٍ تقيٍّ هو لله ولي، فبالإيمان والتقوىٰ تكون الولاية.

والكرَامَةُ: أمرٌ خارِقٌ للعادة، يُجريه الله تعالىٰ علىٰ يد رجلٍ صالحٍ أو وليٍّ من أوليائه، معونةً له علىٰ أمرٍ دِينيٍّ أو دُنيوي، لكن لا تصل كرامةُ الولي

إلىٰ مثل معجزات الأنبياء والمُرسلين، حاشىٰ وكلَّا.

ومن كرامَات الله -تبارك وتعالىٰ- لأوليائِهِ: قصةُ أصحابِ الكَهفِ، وهي مشهورةٌ ذكرها الله رب العالمين في كتابِهِ العظيم.

وكذَلك قصةُ مَريمَ رضي الله عنها، عندَما أجاءها المَخَاضُ إلىٰ جِذعِ النخلة، فأمرها الله -تبارك وتعالىٰ- أن تَهز بجِذعِها لتتساقط عليها رُطَبًا جَنيًّا، ورَزق الله -تبارك وتعالىٰ- لها، هذا أيضًا من كرَامَات ربنا -تبارك وتعالىٰ- لها، بوجود فاكهة الشتاء عندها في الصيف، وفاكهة الصيف عندها في الشتاء.

وقصةُ آصِف كاتبُ سُلَيمانَ، عندما أتىٰ بعَرش المَلكة -ملكةِ اليمنِ-، حتىٰ كان تحت عينيه قبل أن يطرفَ له جَفنٌ، فهذا أيضًا من كرامَات الله
-تبارك وتعالىٰ- لأوليائه.

وقصَّةُ الرجلِ الذي أماتهُ الله مائة عامٍ ثم بعثه.

وقصَّةُ جُرَيجٍ الراهِبِ: وهي قصة مشهورة ذكرها النبي ﷺ، وفيها أنه لمَّا طَعن بأصبَعه في ذلك الرضيعِ وهو حديثُ عهدٍ بالولادة، وقد ادعت البغيُّ أنه منه، وأنه أبوه، ثم إنه لما طَعن فيه فقال: مَن أبوك؟ قال: أبي

الرَّاعي. فكانت كرامةً أجراها الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ يديه.

وقصةُ النَّفَرِ الثلاثةِ من بني إسرَائيلَ، الذين آوَوا إلىٰ غارٍ، فانطبَقَت عليهم الصخرةُ.

إلىٰ غير ذلك مما هو مُشتهِرٌ عند أهل العِلم ثابتٌ بالقرآن العظيم، أو بالسُّنة الصحيحة الثابتة، أو بما صحَّ عن السلف وبمن جاء بعدهم.

والكرامةُ موجودةٌ في هذه الأمة إلىٰ قيام الساعة، لأن سببها الوَلَاية، والوَلاية موجودةٌ إلىٰ قيام الساعة وكل مؤمنٍ تقيٍّ هو لله ولي، فالولاية ثابتةٌ علىٰ هذا النحو، لكل مؤمنٍ تقيٍّ، فنسأل الله أن يَجعلنا منهم بمنِّهِ وكَرَمه، إنه علىٰ كل شيءٍ قدير.

والذين يعبُدون الله -تبارك وتعالىٰ- ويجتهدونَ في الذِّكرِ والخَلوةِ من أجل أن يُجري الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ أيدِيهم الكراماتِ، هؤلاء عابدُونَ للكَرامات.

فإن كثيرًا من الخلق إنما يُقبلون علىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- ليجري الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ أيديهم خوارق العادات؛ فهؤلاء لا يعبدون الله -تبارك وتعالىٰ- حقيقة، وإنما يعبدون خوارق العادات.

وأما الذين سبقوا ممن كان علىٰ النهج الصحيح، فإن الواحد منهم كان يستحيي أن تظهر كرامته كما تستحيي العذراءُ من حيضَتهَا، فهؤلاء كانوا يعاملون الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ ذلك النحو، يخلصون لله -تبارك وتعالىٰ- ويُخفُون الأعمال الصالحةَ ما استطاعَ.

كان الواحدُ منهم ربَّما بكىٰ من خشيةِ الله -تبارك وتعالىٰ- حتىٰ يبلَّ وسادته، ورأسه بجوار رأس امرأته، وهي لا تعلَمُ بذلك ولا تَدري عنه شيئًا.

كان ذلك الرجل صِلَة بن أَشيم -رحمة الله عليه-، كان له مع الله -تبارك وتعالىٰ- حالٌ وأي حال، وكان علىٰ المنهاج الصحيح -رحمة الله عليه-.

تقول امرأتُهُ: إن كان ليصلي في زاوية البيت فما يستطيع أن يصل من زاوية البيت إلىٰ فراشه، يعني: في الحُجرة، ما يستطيع أن يصل من زاوية الحجرة إلىٰ فراشه بعد الصلاة، بعد قيامه لله رب العالمين، لا يستطيع أن يصل من زاوية الحجرة إلىٰ فراشه إلا علىٰ يديه ورجليه من شدة النَّصَب -رحمة الله عليه-.

وغَزَا يومًا، وكان في الرُّفقة رجلٌ يَعرف حاله، فأراد أن يختبره، قال:

فلما جنَّ الليل وصلينا عشاء الآخرة، وضع رأسه كأنه ينام، بل إنه تناوم، حتىٰ ظن القوم أنه قد نام، وأما هو فإنه أخذ يرفع رأسه، فلما آمن أعين الناظرين وعلم أن أحدًا لا يراه سوىٰ رب العالمين، قام فذهب غير بعيدٍ فتوضأ ثم أبعد فأخذ يُصلي!.

قال: وذهبت أنا، فجلست هنالك لا أقوىٰ علىٰ منازعة النوم، وإنما يأخذ الغُمض بجفنَي أحيانًا ثم يروح، قال: وإذا بصوت زئير أسدٍ قد علا، حتىٰ شق جوفَ الظلام زئيره، قال: فماذا صنعتُ أنا؟ أسرعت إلىٰ شجرة عالية فكنت في ذؤابتها، وأما صلة -رحمة الله عليه- فإنه ظل في صلاته، وجاء الأسد فأخذ يدور حوله ويتشمَّمُهُ.

فلما فرغ من ركعتيه وسلم، أقبل علىٰ الأسد فقال: يا أبا الحارث، وهي كنية الأسد، إن كنت قد أُمرت فينا بشيءٍ فأنفذه، وإلا فانصرف راشدًا، قال من كان يلاحظه هنالك: فوضعَ الأسدُ ذَنَبَهُ بين رجلَيهِ، وانصرف كأنه كلبٌ يتشَمَّم.

ثم أقبل صلة -رحمة الله عليه- علىٰ صلاته، حتىٰ إذا آنس الفجر في السحر الأعلىٰ، أخذ يَدعُو ربه -تبارك وتعالىٰ- فماذا قال بعد هذا الذي كان منه، وبعد حاله مع ربه -تبارك وتعالىٰ-، وهو آمن عند نفسه أن أحدًا من

الخلق لا يطلع عليه، ماذا قال؟

قال: اللهم إنِّي أعوذُ بك من النارِ، أوَمِثلِي يسألُكَ الجنَّة؟!!؛ ولكن أعوذ بك من النار.

وهو تأدُّبٌ في السؤال؛ لأنه إن أعاذه من النار أدخله الجنة، ولكنه يتأدب، فيقول: أَوَمِثلي يسألك الجنة؟! اللهم إني أعوذ بك من النار.

هذا إنما يقبسُ من أنوار النبوةِ؛ لأن النبي ﷺ غفر الله رب العالمين له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك كان يقوم الليل حتىٰ تتشققَ قدمَاه، فإذا رُوجِعَ في ذلك، قال ﷺ: «**أفَلا أكُونُ عَبدًا شَكُورًا**»(١).

فمعاملة الله -تبارك وتعالىٰ- بالإخلاص تكون، معاملة الله -تبارك وتعالىٰ- لا تكون بالرياء، ولا بالسمعة، ولا بإظهار الأعمال، ولا بالتماوت في العبادة.

ولذلك كان إذا كان الواحد منهم صائمًا، فأصبح صائمًا ادهن، وجعل علىٰ وجهه شيئًا، ثم مضىٰ يُظهر أنه ليس بصائم، يخفون أعمالهم، ويستحيون من إظهار الكرامات التي يجريها الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

أيديهم.

ولكنْ أقوامٌ يدعون بعد ذلك -بتلك المَخَاريق، من تلك الأشياء التي يمَخرِقُون بِها علىٰ الخلق- أنهم من أولياء الله -تبارك وتعالىٰ-.

من جاء بخارقٍ من خوارق العادات، لم يكن ذلك مزكيًّا له، دالًّا علىٰ ولايته، حتىٰ يُعرض عمله كله علىٰ الكتاب والسنة، فيعرف بالموافقة للكتاب والسنة، واتباعهما ظاهرًا وباطنًا.

ولذلِكَ قَالَ الجُنيد -رحمهُ الله وغَفر لهُ-: من جاءكم وهو يَطير في الهواء، أو يمشي علىٰ المَاء، ولا يعمل بكتاب الله، ولا بسُنة نبيه ﷺ؛ فاعلَمُوا أنه شيطَانٌ.

فينبغي علينا أن نحرر القصد والاعتقاد في هذا الباب؛ فإنه ضلت فيه أفهام، وزلت فيه أقدام، وتردىٰ في النار بسببه أقوام، عندما يعتقدون الولاية فيمن كان فاسقًا، لا لشيء، إلا لأن الشيطان يأتي بالمخاريق.

وهذا أمرٌ قديمٌ في الناس؛ فإن مُسيلمَة الكذابَ إنما جعل من كراماته أنه أتىٰ بدورقٍ كان ضيق الفوهة، ثم أخذ يعرضه علىٰ النار، وتعلم أن الزجاج يتمدد مع النار، وجعل بيضة هنالك، فلما تمدد الزجاج وقعت

البيضة في داخل الدَّورق، ثم لما برد الزجاج لا يستطيع أحد أن يخرج البيضة من الدورق، بل لا يستطيع أن يتصور كيف دخلت في ذلك الزمان، ثم عرضها علىٰ أنها معجزة من معجزات الله رب العالمين، فأي سفهٍ هذَا؟!

وأما النبي ﷺ؛ فإن الله -تبارك وتعالىٰ- يُجرِي علىٰ يديه المعجزات.

وأما الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ فإن الله رب العالمين يُجرِي علىٰ أيديهم الكرامات، ولكن هؤلاء لا يتوقفون عند تلك الحدود، لأنهم يعلمون أن ذلك قد يكون استدراجًا، ولذلك يُشفقون ويَرهبون، ويَرجُون رحمة رب العالمين.

فعلينا أن نصححُ الاعتقادَ في آل بيتِ النبي ﷺ، وفي الأولياء.

في هذين الأمرين من أمور الاعتقاد إذا لم يُصحَّح الاعتقاد، وإذا لم يكن المعتقد صحيحًا في آل البيت -رضوان الله عليهم-، وفي الأولياء؛ فإن كثيرًا من الشرك يدخل علىٰ المسلمين.

وما دخل الشرك في جملته إلا بالغلو في الصالحين، سواءٌ كان الصالحون من آل البيت، أو كانوا من الأولياء.

بل إن أول شركٍ دخل البشرية وتطرق إلىٰ الناس، إنما كان بسبب الغلو في الصالحين.

فإن الذين ذكرهم الله رب العالمين من قوم نوح، كانوا قومًا صالحين: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر؛ أسماء قومٍ صالحين، كانوا يجلسون للتذكير، وكان من هنالك يعرفون قدرهم وعلمهم، ويخشعون عندهم للعلم الذي يسمعونه منهم، وللتذكير الذي يجريه الله رب العالمين علىٰ ألسنتهم، والخير الذي يسوقه الله رب العالمين إليهم بسببهم.

فلما ماتوا، قالُوا: نجعل لهم تماثيلَ، فننصب تلك التماثيل في الأماكن التي كانوا يذكروننا بالله فيها، ثم نجلس أمام تلك التماثيل من أجل أن نتذكر ما كانوا يقولون، فصنعوا، كان يجلسون يطرقون، يخشعون، يرهبون، يتذكرون، يتأملون.

ثم جاء جيلٌ، فمضىٰ في التقديس شَوْطًا أبعد، حتىٰ عُبدت تلك الأصنام من دون الله رب العالمين.

فأول شركٍ دخل البشرية، وأول شركٍ تطرق إلىٰ البشرية، إنما كان بسبب الغلو في الصالحين.

فينبغي علينا أن نُحرِّر الاعتقاد الصحيح في آل بيت الرسولﷺ، وفي الأولياء؛ حتىٰ لا نضل ولا نَخزَىٰ.

النهي عن الجدال في الدين
التحذير من مجالسة أهل الأهواء

فإن منَ المُفردَاتِ الَّتِي يلتزِمُ بها أهل السُّنةِ والجمَاعةِ: أنهم ينهَونَ عن الجِدال في الدِّين، وعن الخصومات في الدين؛ لأن الرسولَ ﷺ حذَّر من ذلك تحذيرًا شديدًا.

ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**اقرَءُوا القُرآنَ مَا ائتَلَفَتْ عَليْهِ قُلُوبُكُم، فَإذَا اختَلَفْتُم فَقُومُوا عَنهُ**»(١).

وفي المسند وسنن ابن ماجه، وأصله في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج وهم يَختصمون في القَدر، فكأنما يُفقأ في وجهه حبُّ الرمَّان من الغَضب، فقال: «**بِهَذَا أُمِرتُم** -أو: **لِهَذَا خُلِقْتُم**-؟!؛ **تَضرِبُونَ القُرآنَ بَعضَهُ بِبَعضٍ، بِهَذَا هَلَكَتِ الأُمَمُ قَبلَكُمْ**»(٢).

بل جاء الخبر بأن الجِدال عقوبة من عقوبات الله في الأمة؛ ففي سنن الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمَامةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٠)، ومسلم (٢٦٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٦٨٠٦)، وابن ماجه (٨٥)، وأصله عند مسلم (٢٦٦٦).

ضَلَّ قَومٌ بَعدَ هُدًىٰ كَانُوا عَلَيهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف:٥٨]»[(١)].

فأهل السنة والجماعة ينهَون عن الجِدال والخُصوماتِ في دين الله -تبارك وتعالىٰ-.

ويقرِّرونَ ما ذكره الرسول ﷺ من أن الجدال في الدين إنما هو عقوبة من عقوبات الله -تبارك وتعالىٰ- في الأمةِ.

فأهل السنة يدعون إلىٰ الائتلاف، وينهون عن الاختلاف، ويدعون إلىٰ البحث والنظر في دين الله -تبارك وتعالىٰ- بعيدًا عن الخصومات والجدل؛ لأن ذلك من العقوبات التي تُضرب علىٰ الأمة، عندما تَضلُّ بعد الهدىٰ.

والنبي ﷺ لما خرج فرأىٰ بعض أصحابه -رضوان الله عليهم- يتنازعون يختصمون في القدر، فغضب ﷺ، وكان إذا غضب يُدِرُّ له عِرْق بين عينيه من الدم ما يُدِرُّ حتىٰ ينتفخ هنالك، دلالةً علىٰ غضبه ﷺ ومَوْجِدته.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٣٣).

أهلُ السُّنةِ: مُتآلِفُون، مُتحَابُّون، لا يختلفون ولا يتنازعون، لا يختلفون في دين الله -تبارك وتعالىٰ-، ولا يتنازعون في أصول شريعة محمدٍ ﷺ؛ لأنها واضحة لا التباس فيها؛ ولأن النبي ﷺ بلَّغها فأقامَهم علىٰ المَحجَّة البيضاء ليلها كنَهارِهَا لا يزِيغُ عنها إلا هالك.

فلأي سَبب تكونُ الخصوماتُ؟!

ولأي سبب تأتي المُجادلات في دين الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ هذا النحو المرذول الذي كرهه الرسول ﷺ؟!

قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ-: «أصولُ السنة عندنا: التمسُّكُ بما كان عليه أصحَابُ الرسولِ ﷺ، والاقتداءُ بِهم، وتَركُ البدع، وكلُّ بدعةٍ فهي ضلالة، وترك الخُصومات والجُلوس مع أصحابِ الأهوَاءِ، وتَرك الجِدال والمِراء والخصومَاتِ فِي الدِّينِ».

فانظر -يا هداك الله- كيف جعل هذا الإمام الكبير -رحمه الله تعالىٰ- هذه الأمور من أصول السنة، يعني: مِن أصولِ الاعتقَادِ.

فمِن أصُولِ الاعتقادِ عِندنَا أهلَ السُّنَّة: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وتَرك البِدَع، وكلُّ بدعةٍ فهي ضَلالةٌ.

ومِن أصُولِ السُّنةِ عِندَ أهلِ السُّنةِ: ترك الخصومات، وترك الجلوس مع أصحاب الأهواء والبدع، وترك المراء والخصومات والجدال في الدين.

وكل ذلك في الجدال بالباطل، أو الجدال في الحق بعد ما تبين، أو الجدال فيما لا يعلم المحاجُّ أو المجادلُ ما يجادل فيه من المُتشابه في القرآن مثلًا، أو أن يجادل بغير نية صالحة، ونحو ذلك.

وأمَّا الجِدال المَحمودُ: فإنه الجدال الذي يكون لإظهار الحق وبيانه، من عالم له بنية صالحة، وهو ملتزمٌ بالأدب، فذلك مما يُحمد.

قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وقال -جلت قدرته-: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود:٣٢].

وأخبر سبحانه عن مُحاجَّةِ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مع قومه،

وموسىٰ -عليه الصلاة والسلام- مع فِرعونَ.

وفي السنة ذكر مُحاجَّة آدم وموسىٰ -عليهما الصلاة والسلام-.

ونُقل عن السلفِ الصالِحِ مُناظرات كثيرة.

وكلها من الجِدالِ المَحمُود الذي توفَّرَ فيه العِلم، والنية، والمُتابعة، وأدب المُناظرة، فأمثال ذلك إذا كان لنصرة دين الله -تبارك وتعالىٰ- فلا شيء فيه.

وكان كبير الروم قد أرسل إلىٰ الخليفة مرة أن يرسل إليه عالمًا من علماء المسلمين، فأرسل إليه الباقلَّانِي وكان من أذكىٰ الناس، فأراد أن يُذله، فجلس علىٰ كرسي عرشه، وجعل الباب الذي يوصل إليه لائطًا بالأرض، بحيث إن الذي يدخل منه يدخل حبوًا، فإذا ما نفذ من ذلك كأنما يكون ساجدًا أمام العرش الذي يجلس عليه كبير الروم.

فلما أَخَذُوا بيد الباقلاني -رحمة الله عليه-، وأروه المنفذ الذي سينفذ منه حتىٰ يلاقي قيصر، أدرك ما هُنالك من الحيلة، فماذا صنع؟

استدار ودخل بدبره حتىٰ كان ظهره لقيصر، ثم استقام وظهره له فسوىٰ عليه ثيابه، ثم استدار إليه، فأقبل عليه يُناظره ويجادله.

قال: ما تقولون في امرأة نبيكم -صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ورضي الله عنها -يعني: عائشة في حادثة الإفك، ما تقول في هذا الذي قيل فيها؟

قال: اسمع حتىٰ أُخبرك، هما اثنتان: واحدةٌ لها زوج، وقيل فيها ما قيل، ولم تأتِ بولد -يعني: عائشة -رضوان الله عليها-، وأخرىٰ لا زوج لها، وقيل فيها ما قيل، وأتت بولد، فإن صدقت في الثانية فصدِّق في الأولىٰ.

كان نصرانيًّا، وكان علىٰ اعتقاد أن مريم طاهرةٌ وعذراء، وأنه لم يأت منها خَنىٰ -رضوان الله عليها-، فأخذوه بخناقه، فقال: هما اثنتان، واحدةٌ قيل فيها ما قيل، -يعني: عائشة-، ولها زوجٌ ولم تأت بولد، وواحدة قيل فيها ما قيل -يعني: مريم- وليس لها زوجٌ وأتت بولد، فإن صدقت في هذه فصدق في تلك، وإن كنت لا تصدق في هذه فلا تصدق في تلك.

فانظر إلىٰ هذه المجادلة كيف كانت علىٰ هذا النحو من الأدب، ومن الرفق، ومن الإفحام أيضًا، فكأنما ألقمه حجرًا.

فأهل السنة يَنهونَ عن الجدال في الدين، ويأمرون بترك الخصومات في الدين، والجدل المذموم هم أبعدُ الناس عنه.

وأما الجَدل المحمود بشروطه التي وضحها الكتاب والسنة، من

أجل نصرة دين الله -تبارك وتعالىٰ-، فذلك مُرغَّبٌ فيه، يحث عليه الدين، بل يأمر به أحيانًا.

❊ ❊ ❊

المعتقد الصحيح في معاملة ولاة الأمور والحكام

ومِن المُعتقدِ الصَّحيحِ: أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله -تبارك وتعالىٰ- أوجب علىٰ المُؤمنين طاعة ولاة الأمور في غير معصية الله رب العالمين.

ويعتقدون معنىٰ قوله ﷺ في حديث عُبادَة بن الصَّامتِ رضي الله عنه: «**اسمَعْ وأَطِعْ فِي عُسرِكَ ويُسرِكَ، ومَنشَطِكَ ومَكرَهِكَ، وأَثَرَةٍ عَلَيكَ، وإِنْ أَكَلُوا مَالَكَ وضَرَبُوا ظَهرَكَ، إلَّا أَن يَكُونَ مَعصِيَة**»[1]. أخرجه ابن حبان في صحيحه بإسنادٍ حسن، وأصله في الصحيحين.

ويعتقدُ أهلُ السُّنةِ: تحريم الخروج علىٰ ولاة الأمر، وإن جاروا وظلموا، ما لم يَرَوا كُفرًا بواحًا عندهم فيه من الله بُرهان.

وذلك لقول الرسول ﷺ: «**خِيارُ أئِمَّتكُم: الذِينَ تُحبونَهُم ويُحبونَكُم، ويُصلُّونَ عَليكُم وتُصلُّونَ عَلَيهِم** -أَي: يَدعونَ لَكُم وتَدعُونَ لَهُم-، **وشِرَارُ أئِمَّتِكُم: الذِينَ تُبغِضُونَهُم ويُبغِضُونَكُم، وتَلعَنُونَهُم ويَلعَنُونَكُم**».

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٥٦٢)، وأصله في الصحيحين: البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

قيلَ: يا رسولَ الله، أفلا نُنابِذُهم بِالسَّيف؟

فقال: «**لَا، مَا أَقَامُوا فِيكمُ الصَّلاةَ**».

وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا أن تكرهونه، فاكرَهُوا عمله، ولا تنزعوا يدًا من طاعة[1].

فأهل السنة والجماعة يعتقدون: تحريم الخروج علىٰ ولاة الأمر وإن جاروا وظلموا، ما لم يروا كفرًا بواحًا عندهم فيه من الله برهان.

وحتىٰ لو رأوا كفرًا بواحًا عندهم فيه من الله برهان، فإنهم لا يرون الخروج علىٰ ولاة الأمر، ما لم تُستكمل العِدة، وإلا فإن ذلك يؤدي إلىٰ كثيرٍ من الشر والفوضىٰ، بحيث ينعكس القصد علىٰ القاصد، ويقع من الأمور ما لا تُحمد عقباه.

وكان الإمام أحمد من أشد الناس تحذيرًا من أمثال هذه الأمور، والذين يستشيرونه في الخروج علىٰ الولاة ويقولون: إن الأمر عاد بحيث لا يُصبر عليه، يقول: الدماء الدماء، الدماء الدماء.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

لأنه إذا وقعت الفتنة انقطعت السبل، وحينئذٍ تتقطع العُرىٰ، وحينئذٍ تُهتك الحرمات، وحينئذٍ يُعتدىٰ علىٰ الفروج والأموال والديار، ويأتي الخراب العاجل -نسأل الله أن يسلِّمنا من ذلك أجمعين-.

وفي لفظٍ للرسول ﷺ: «**أَلَا مَن يَأتِي عَليهِ وَالٍ فَرآهُ يَأتِي شَيئًا مِن مَعصِيَةِ اللهِ فَليَكرَهْ مَا يَأتِي مِن مَعصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنزِعَنَّ يَدًا مِن طَاعَةٍ**»[1]. أخرجه مسلمٌ عن عوف بن مالك رضي الله عنه.

والخَارجُ من الجماعة أَلحق به الشارعُ عقوباتٍ غليظة في الدنيا والآخرة تتناسب مع عظم جريمته.

من ذلك: أن من مات وهو خارجٌ عن الطاعة مفارقٌ للجماعة مات ميتة جاهلية.

ومن فارق الجماعة؛ فإنه لا يسأل عنه، كناية عن عظيم ذنبه.

ومن فارق الجماعة؛ فلا حجة له عند الله يوم القيامة.

ومن فارق الجماعة؛ فإن الشيطان معه يرتقض.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

ومن فارق الجماعة؛ حلَّ دمه.

فهذا كله مما بينته مفردات الرسول ﷺ.

ويعتقدُ أهلُ السنة والجمَاعةِ: أن الدعاء لولي الأمر بالصَّلاح والمعافاة مما يحمد ويتأكد، وهو علامة الرجل من أهل السنة.

كما قالَ الإمامُ البَربهَاريُّ في كتابِ «شَرحِ السُّنَّةِ»: «إذا رأيت الرجلَ يدعُو علىٰ السلطان فاعلم أنه صاحبُ هوىٰ، وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاحِ فاعلَم أنه صاحبُ سُنة -إن شاء الله-».

يقول الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو كان لي دعوة ما جعلتها إلا في السلطان.

فأُمِرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم وإن جاروا وظلموا؛ لأن جَورَهم وظلمَهُم علىٰ أنفُسِهم وعلىٰ المُسلمين، وصلاحُهُم لأنفُسِهم وللمُسلِمينَ.

وقال الإمامُ الصَّابونِيُّ في «عَقيدَةِ السَّلفِ أصحَابِ الحَديثِ»: ويَرون -يعني: أهلَ السنة- الدعاء لهم -يعني: للأئمة- بالإصلاح والتوفيق والصَّلاح.

ويرون أن سببهم مما نُهِي عنه شرعًا باتفاق أكابر أصحاب رسول الله ﷺ.

يقول أنسٌ -رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه-: «نَهانا كُبَراؤنا من أصحابِ رسُول الله ﷺ، قال: لا تسُبُّوا أمرَاءكم، ولا تَغُشُّوهم، ولا تُبغِضُوهم، واتقوا الله واصبِرُوا؛ فإن الأمرَ قريبٌ»، رواهُ ابن أبي عاصِم في السُّنة وغيره كذلك.

والأمر كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ للذين ذهبوا إليه ليستشيروه في الخروج علىٰ الولاة والحكام، فقال لهم: اصبِرُوا، حتىٰ يَستَريحَ برٌّ أو يُستَراحَ مِن فاجرٍ.

كما قال أنسٌ -رِضوان الله عَليه- في حَديث رسولِ الله ﷺ: «**واتَّقُوا اللهَ واصبِرُوا؛ فإنَّ الأمرَ قَريبٌ**»[1].

وإن الله -تبارك وتعالىٰ- قد بيَّن لنا القانون في كتابه العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٢١٧)، وقال الألباني في ظلال الجنة (١٠١٥): إسناده جيد.

وإنما هم في الحقيقة عقوبة للذين تركوا دين الله -تبارك وتعالىٰ- فسُلِّطوا عليهم، فلو أرادوا الصلاح والإصلاح حقًّا فعَليهم أن يعُودوا إلىٰ دين الله رب العالمين حقًّا وصِدقًا.

وحَذَّر أهلُ السُّنةِ مِن مجالسة أهلِ الأهواء والبدع تحذيرًا شديدًا؛ لأن مجالستهم فيها مخالفة أمر الله رب العالمين، وهي عَلامة محبتِه، ومُجالِسُهُم علىٰ خطرٍ من الانقياد إلىٰ ضَلالهم، ومتابعتهم علىٰ باطلهم.

قال شيخُ الإسلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالبِدعَةُ التِي يُعَدُّ بِهَا الرَّجلُ مِن أَهلِ الأَهوَاءِ: مَا اشْتهَرَ عِندَ أَهلِ العِلمِ بِالسُّنَّةِ مُخَالَفَتُهَا للكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: كَبِدعَةِ الخَوَارِجِ، وَالرَّوَافِضِ، وَالقَدَرِيَّةِ، وَالمُرجِئَةِ».

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

قال ابنُ عبَّاسٍ: «دَخلَ في هذَا الآية كل مُحدَثٍ في الدِّين، وكل مُبتدعٍ إلىٰ يَوم القيامَةِ». نقلَه عنه البَغويُّ في تَفسيره.

وقال ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذه الآية الدلالة الواضحة علىٰ النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوعٍ من المُبتدعة والفَسقَة عند خوضهم في باطلهم».

قال ابن عباس: «لا تجالس أهل الأهواء؛ فإن مجالستهم ممرضة للقلب».

فعلىٰ العبد الصالح الذي هو شحيحٌ بدينه، حريصٌ علىٰ يقينه: ألا يجالس أهل البدع، وألا يسمع منهم شيئًا؛ فإنه لا يأمن؛ فإن الشبهة ربما استقرت في القلب ثم لا تخرج منه أبدًا، فحينئذٍ يضل سماعها ضلالًا مبينًا.

وكان العلماء من سلف الصالح -رحمة الله عليهم ورضوانه- لا يَقْرب منهم أحدٌ من أهل البدع إلا نبذوه وزجروه حتىٰ يكون مزجر الكلب، بذلك أمرهم نبيهم ﷺ، وبذلك أمرهم ربهم -جل وعلا-، ألا يجالسوا أهل الباطل، وألا يسمعوا منهم.

فكان الواحد منهم إذا ما أقبل علىٰ واحد من علمائنا من السلف الصالحين -رضوان الله عليهم أجمعين- يضع إصبعيه في أذنيه، يقول له: اسمع مني كلمة، يقول: ولا نصف كلمة، فيقول له: اسمع مني آية من كتاب

الله، يقول: لا، ولا أجامعك تحت سقفٍ أبدًا، يعني: لا أكون أنا وأنت تحت سقفٍ أبدًا، ولا يستقر له قَرارٌ حتىٰ ينصرف صاحب البدعة.

فإذا ما أقبل عليه بعد انصراف صاحب البدعة أحدُ أصحابه، فقال: يريد الرجل أن يُسمعك آية من كتاب الله تعالىٰ ثم ترفض! يقول: إنك لا تدري، لعله يأتي بها فيتلوها علىٰ غير الوجه، فيحرفها، فحينئذٍ تستقر في قلبي ولا أستطيع إخراجها.

فإياك إياك وأهل البدع؛ فإنهم كالجرب يُعدي، وعلىٰ المرء أن يفر منه كما يفر من المجذوم، وعليهم أن يتحروا ذلك أعني: أهل السنة، أن يفروا من أهل البدع كما يفرون من الأسد، علىٰ المرء أن يكون ضنينًا بدينه، حريصًا عليه، شحيحًا بيقينه.

فهذه جُملة من المعتقد الصحيح، من معتقد أهل السنة والجماعة، من معتقد رسول الله ﷺ، من معتقد الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، وهي جملة موجزة، تحتمل بسطًا طويلًا.

وعلىٰ العبد الذي يريد النجاة من النار، والفوز بالجنة، والقرب من النبي المختار ﷺ في الفردوس الأعلىٰ منها: أن يتحرىٰ المعتقد الصحيح،

وأن يدرسه، وأن يتدارسه، وأن يفحصه، وأن يبحث عنه، وأن يعتقده، وأن يعمل به، وأن يَلْهج به بلسانه، وأن يدعو إليه، فإن فعل ذلك نجا إن شاء الله -تبارك وتعالىٰ-، وإلا فلا يلومنَّ امرؤٌ إلا نفسه.